البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا



عادل المجداوي

تقديم: عماد عبد اللطيف

دار العين للنشر

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة
بلاغة الجمهور نموذجا

عادل المجداوي

الطبعة الأولى / ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: عمرو عبد العزيز
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢١/٥٩٩٩
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 601 - 5

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا

عادل المجداوي

تقديم: عماد عبد اللطيف

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

المجداوي، عادل

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة: بلاغة الجمهور نموذجا/ عادل المجداوي.

[illegible]: دار العين للنشر، ٢٠٢١

ص، سم

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٦٠١ ٥

١- البلاغة العربية

أ- العنوان

٤١٤

رقم الإيداع/ ٥٩٩٩ / ٢٠٢١

المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

مشاريع البلاغة العربية

رؤية معرفية مقارنة

د. عماد عبد اللطيف

قَدَر المعرفة تطورها. فجديد اليوم، هو قديم الغد. والمعارف لا تموت، بل تشكّل كلّ معرفة قديمة جزءًا من نسيج كلّ معرفة جديدة. وعلاقة القديم بالجديد من المعرفة ليست دومًا علاقة صراع وهدم. إذ تحتمل، كذلك، الإضافة، والتحديث، والاستكمال. ويحتاج الباحثون في أي حقل معرفي إلى دراسات معمّقة ترصد النقاط المفصلية في تحولات العلوم، وتكتب تاريخها، وتكشف عن علاقات الجديد بالقديم. هذه الدراسات تنتمي إلى تاريخ العلم، ولها أهمية حاسمة في طريقة تصورنا للعلم، وطريقة تفكيرنا في مستقبله. مثلما يفعل كتاب "البلاغة العامة والخاصة: بلاغة الجمهور نموذجًا" للأستاذ عادل مجداوي، الذي يُقدم إسهامًا مهمًا في علم البلاغة بواسطة دراسة بعض مشاريع البلاغة العربية من منظور فلسفة العلم وتاريخه.

لقد شهد علم البلاغة في العالم العربي الحديث والمعاصر عددًا من

التحولات الجذرية في ماهيته، ووظائفه، ومسائله، ومناهجه، وعلاقاته بغيره من العلوم، ومدى انتشاره وانحساره...إلخ. اتخذتْ هذه التحولات شكل مشاريع علميّة، قدّم كلّ منها تصوره الخاص للقضايا السابقة، وساهم في إكساب البلاغة العربية هويّة جديدة. عادةً، تُدرس هذه المشاريع التجديدية من زوايا المؤثرات، والمظاهر، والنتائج. فغالبًا ما يتوجه الاهتمام إلى دراسة العوامل المؤثرة في هذه المشاريع؛ سواء أكانت معرفية أم غير معرفية، وإلى دراسة مظاهر التجديد الذي تقدمه على المستويات المختلفة للعلم، وبخاصة ما يتعلق بماهية العلم، ومسائله، ومنهجياته، وعلاقاته المعرفية. علاوة على ذلك، فإن بعض الاهتمام بهذه المشاريع البلاغية يتوجه إلى النتائج والآثار التي أحدثتها في حالة المعرفة في زمن ما. وعلى خلاف ذلك، فإن العلاقات بين هذه المشاريع نادرًا ما تُدرس من منظور فلسفة العلم، وهذا ما يميز الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

بحسب ستيف فولر (2019) فإن فلسفة العلم معنيّة بدراسة الكيفية التي يُنتِج بها البشرُ المعرفةَ خلال حيواتهم القصيرة[1]. وتتعاظم أهمية فلسفة العلم حين يحاول العلماء تفسير التحولات الجذرية في حركة العلم. وقد خضعت هذه التحولات لمحاولات تفسيرية متنوعة، لعل أهمها مقترح توماس كون الذي ينظر إلى الطفرات المعرفية بوصفها تحولات فيما أسماه النماذج الإرشادية للعلم Paradigms. وهو المفهوم الذي يؤسس عليه الأستاذ عادل المجداوي مقاربته لمشروعي البلاغة العامة، وبلاغة الجمهور، بوصفهما مشروعين بلاغيين فاعلين في المشهد البلاغي العربي الراهن. وهو

(1) Fuller, S. (2019). Philosophy of Science and its Discontents. New York: Routledge. انظر،

يقدّم بذلك ما يمكن أن نعدَّه أول دراسة عربية معمّقة لمشاريع البلاغة العربية المعاصرة من منظور فلسفة العلم. ومن هذا المنظور يجمع الكتاب بين منظورين مميّزين؛ الأول منظور معرفي يمثل الأساس النظري لها، والثاني منظور مقارن يمثل منهجيتها في المعالجة.

يوظّف الأستاذ المجداوي في كتابه إحدى أهم نظريات فلسفة العلم؛ أعني نظرية النماذج الإرشادية -أو الإبدالات المعرفية بحسب الترجمة المعتمدة عند المؤلّف-؛ لتفسير نشأة وتطور إسهامين بلاغيين هما البلاغة العامة عند الأستاذ محمد العُمري، وبلاغة الجمهور عند عماد عبد اللطيف. وقد أوضح في مفتتح كتابه علّة اختيار هذين الإسهامين تحديدًا في أنه يتحقق فيهما مفهوم المشروع البلاغي المكتمل، وأنهما ينطلقان من أرضية عربية، على الرغم من إفادتهما من منجزات غربية مهمّة. وقد استعمل مفهوم النموذج الإرشادي للوقوف على التحولات التي يُحدثها كلّ منهما في التصورات التقليدية لعلم البلاغة في العقود الأخيرة.

يقترح مؤلِّف هذا الكتاب أن مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور أحدثا تحولين جذريين في النموذج الإرشادي لعلم البلاغة العربية المعاصرة. ورصد بدقة وعمق التغييرات التي أحدثاها في إدراك الباحثين المعاصرين لماهية علم البلاغة، ومسائله، وغاياته، وعلاقاته المعرفية، ومستقبله القريب. والكتاب من هذه الزاوية يقدم معالجة وصفية ونقدية متميزة لهذين المشروعين المعرفيين؛ لكنه لا يقتصر على ذلك، إذ يُقدم كذلك منظورًا مقارنًا لا يقل أهمية.

قارن المؤلِّف بين مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور من زاوية

علاقة كلّ منهما مع التراث، والبلاغة الغربية، وخصوصية المفاهيم المحورية التي تشكّل كلًّا منهما. وُضِعتْ هذه المقارنات في إطار شامل هدفه مقارنة التصورات الإبستمولوجية للمشروعين؛ لتحديد مفاصل الالتقاء، ونقاط التباين فيما بينهما. وعلى الرغم من أن المؤلف ينطلق من فرضية موجّهة هي أن بلاغة الجمهور تُمثّل "بلاغة خاصة" يمكن أن تعمل في إطار "بلاغة عامة"، فإن هذا التصور للعلاقة بين المشروعين لم يحل دون إدراك الخصوصيات والتمايزات العميقة بين المشروعين. وفي الحقيقة، فإن المقارنة التفصيلية الوافية والدقيقة بين المشروعين ربما أسهمتْ في مراجعة هذه الفرضية، لتتأسس علاقات أخرى تصف الصلة بين المشروعين بدلاً من علاقة الاحتواء التي يفرضها تصور العام والخاص. فكلما اقتربنا من ختام مقارنة المؤلّف للمشروعين، تراجع الإلحاح على علاقة العموم والخصوص؛ لتحل محلها علاقة الاستقلال والمغايرة.

تقوم مقارنة المشاريع العلميّة الفاعلة في حقل معرفي ما بوظائف متنوعة. من أهم هذه الوظائف نقد التصورات الشائعة للعلاقات بين الإسهامات العلمية، على نحو ما يتحقق في هذا الكتاب. علاوة على ذلك، فإن مقارنة المشاريع العلمية يمكن أن تكون مدخلاً لكتابة تاريخ العلم، على اعتبار أن تاريخ العلوم هو بشكل أو آخر تاريخ المشاريع العلمية الأكثر تأثيرًا فيه. كذلك، تقود هذه المقارنات إلى الفحص الدقيق لخصوصيات المشاريع العلمية، بما يجعل إدراكنا لهذه المشاريع أكثر نفاذًا وعمقًا. وفي الحقيقة، فإن إحدى النتائج الثانوية شديدة الأهمية للمقارنة التي عقدها المؤلّف بين مشروعي الأستاذين العمري وعبد اللطيف تمثلتْ في تقديم فحص شديد العمق لخصوصيات كلّ منهما، ربما يكون غير مسبوق أيضًا. وأخيرًا، فإن

مقارنة المشاريع العلمية يُعدُّ مدخلاً ناجعًا لتقييم الإسهام الفعلي الذي يقدمه كلّ مشروع منها. ويمكن لمتصفح الكتاب الحالي أن يصل إلى خلاصات تقييمية دقيقة بشأن المشروعين المدروسين بفضل الملاحظات الثاقبة التي قدمتها مقارنة الأستاذ المجداوي بينهما.

يزداد تقديرنا للأعمال المقارنة للمشاريع العلمية إذا وضعنا في الحسبان ما تحتاج إليه هذه المقارنة من عُدّة معرفية، وجهود بحثية. إذ يحتاج الباحث إلى إلمام عميق وشامل بكل ما كتبه أصحاب هذه المشاريع، والإحاطة بمصادرها، وتتبع تجلياتها، وآثارها. وهو ما يتطلب جهدًا كبيرًا من المقارِن. كما تحتاج هذه المقارنة إلى إطار نظري ناجع يمثل أرضية معرفية لهذه المقارنة. ولا بد أن قارئ هذا الكتاب، سيقدِّر، على نحو مضاعف، الجهد الذي بذله مؤلّفه في إنجاز مقارنته؛ وذلك لسببين على الأقل: الأول هو صعوبة الإحاطة بالمشروعين المدروسين؛ لكثرة وتنوع الكتابات التي تنتمي إليهما؛ بفضل غزارة الإنتاج و/ أو التراكم المعرفي عبر عقود من الزمن. أما الثاني فهو أن إحاطة الباحث بأعمال المشروعين البلاغيين تتسم بالدقة والعمق، وتخلو من مشكلات معتادة؛ مثل تشوه الفهم، وإيثار النقل والاقتباس، وغياب الرؤية النقدية، والتحيز المسبق.

ليست السمات السابقة هي وحدها مآثر الكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز. فهيكل الكتاب من حيث تراتب موضوعاته، وفصوله، يتسم بالانسجام، والتماسك، والفاعلية. فهو يصدر عن خطة واضحة، وتصور دقيق لما هو جوهري في المشروعين البلاغيين المدروسين. كما أن الكتاب يعكس بعض أهم السمات التي يجب أن يتمتع بها الباحثون؛ أعني

الموضوعية، والنزاهة، وحسن تقدير الأمور. علاوة على ذلك، يكشف الكتاب عن تمكُّن المؤلّف من أدواته البحثيّة على نحو مثير للإعجاب؛ فهو يسيطر على موضوع بحثه، ويتحرك وفق خطة محكمة، ويسيطر على اللغة باحتراف. ولا يسع قارئ الكتاب إلا أن يُعجب بأسلوب الكاتب، وبخاصة سمات الوضوح، والدقة، والإتقان التي تظهر في كلّ فقرة من فقرات كتابه.

مقدمة

تشترك الأعمال التي تنتمي إلى "البلاغة الجديدة" في هدف كبير يتجلى في تجديد الدرس البلاغي العربي القديم أو ما يُعرف بـ"البلاغة التقليدية" التي يجسدها أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ) خاصة في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، هذا القسم اتكأ عليه الخطيب القزويني (ت739هـ) تلخيصا وتوضيحا،[1] ومن ثم تشكلت نظرة قزوينية للبلاغة العربية ستعمل الدراسات البلاغية الجديدة جاهدة على تجاوزها. وهي نظرة مدرسية للبلاغة العربية، استمرت بعد الخطيب القزويني مع شراح تلخيص مفتاح العلوم حتى زمننا الحاضر؛[2] إذ حَصرت البلاغةَ العربية في أقسام ثلاثة، سَمَّتها البيانَ، والمعانيَ، والبديعَ؛ مما جعلها تتبادر إلى ذهن كل من مرَّ بباله ذكر كلمة بلاغة. وعلى الرغم من تاريخ هذه "البلاغة المختزلة" فقد تخللها في عصر القزويني مشروعٌ بلاغي مغاير مع حازم القرطاجني (ت684هـ) في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" الذي احتفلت به البلاغة الجديدة وهي تبحث في التراث البلاغي العربي عما يخدم رؤيتها التجديدية، ولكن منهاج حازم لم يحظ بقارئ في عصره مثلما حظي مفتاح السكاكي بمجموعة من القراء، غير أن باحثين بلاغيين جددا عكفوا اليوم على التراث البلاغي

(1) انظر: القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة والإيضاح في علوم البلاغة.
(2) لعل أشهر الكتب البلاغية ذات الطابع الاختزالي المدرسي المتداولة اليوم، كتاب "البلاغة الواضحة" لعلي الجارم ومصطفى أمين.

مُطّلعين في الوقت نفسه على التقدم المعرفي الحاصل عند الغرب، سواء في علوم اللسان أو الإنسان، غير متقوقعين على "الهوية العربية" يحاولون البحث في إطار العنصر "العربي الأصيل"، بل عملوا على محاورة التراث ونقده، بإبعاد ما جمّد حركية البحث البلاغي والأخذ بما من شأنه أن يحقق سيرورته في تفاعل حضاري، غير منبهرين بما عند الآخر جملة وتفصيلا، بل بعد تمحيصه ومحاورته خدمة للبلاغة التي انفصلت عن الحياة وعن محاورتها نصوص عصرها. وفي هذا المسار التجديدي شمخ اسم الأستاذ محمد العمري بمشروعه الرائد البلاغة العامة عبر تاريخ من البحث المضني نَيَّفَ على أربعة عقود ولم ينتهِ من تهذيبه، ففي كل لحظة يضيف ما من شأنه أن يُحكم بناء هذا الصرح البلاغي الجديد، لاسيما أن مشروع البلاغة العامة يستلزم دخول بلاغات خاصة في إمبراطوريته، وهي نزعة "هيمنة" تروم تحقيق إطار بلاغي عام يتسع لأي بلاغة كيفما كانت أسئلتها البحثية وروافدها المعرفية ما دامت تنتمي إلى الحقل البلاغي.

وفي إطار هذا المسار التجديدي للحقل البلاغي العربي نفسه، برز الباحث عماد عبد اللطيف بمشروع ضخم متكون من خمسة مسارات كبرى منها: اقتراحه توجها سماه بلاغة الجمهور، الذي سنسمه بسمة مشروع؛ لأنه حدد له مادته وموضوعه ووظيفته بعد قراءة التراث البلاغي العربي، بالإضافة إلى تحديد مجال بحثه وأسئلته الخاصة ثم محاولة تحديد تصوره الإبستمولوجي وإطاره الفلسفي.

سنعمل على البحث في توجهه البلاغي الجديد (بلاغة الجمهور) منذ ظهوره تحت عنوان "بلاغة المخاطب" سنة 2005 في مقاله المؤسِّس لهذا

التوجه المعرفي الجديد ممتدين مع الزمن إلى سنة 2017 حين صدور عمل جماعي يحمل عنوان: "بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات".

اطلعنا في هذا الكتاب الجماعي لبلاغة الجمهور على دراسة للأستاذ ادريس جبري بعنوان: "في علاقة البلاغة العامة بالبلاغات الخاصة، بلاغة الجمهور عند عماد عبد اللطيف نموذجا"، فشدنا العنوان ثم تتبعنا بناء الدراسة ومحتواها باحثين عما يسميه الدكتور محمد العمري العنصر المنسق الذي يجعل البلاغات الخاصة تنتمي إلى البلاغة العامة، فكلمة العامة تقتضي بداهة الخاصة ومثالها هنا هو "بلاغة الجمهور".

قسّم الباحث دراسته إلى قسمين، خصّص القسم الأول للبلاغة العامة متحدثا فيه عن نشأتها وعن أهم محطاتها مع محمد العمري، ثم انتقل إلى الحديث عن بلاغة الجمهور وأهم منجزاتها، وتخلل ذلك بعض إشارات إلى توافق البلاغتين في عدة مناطق، أهمها منطقة المخاطب الذي يعبر عنه في البلاغة العامة بالمستمَع ترجمة لـ Auditoire ويعبر عنه بالجمهور في بلاغة الجمهور؛ لقد كان هذا التجاور الذي جمع فيه الباحث بين هذين المصطلحين مبعثا على التساؤل والبحث في مفهوميهما، ليتطور الأمر إلى البحث في الأسس الإبستمولوجية للمشروعين البلاغيين على مستوى أكبر؛ فاتخذنا افتراضات تلك الدراسة منطلقا لتعميق البحث في الإشكالية الكبرى لهذا البحث، وهي:

كيف تتحقق العلاقة بين البلاغة العامة وبلاغة الجمهور؟

وتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة نحصرها في ما يأتي:

هل يمكن الحديث عن البلاغتين في إطار واحد؟

أيمكن أن نعدّ بلاغة الجمهور بلاغة خاصة؟

ما التصور الإبستمولوجي لهذين المشروعين البلاغيين؟

ما خلفياتهما الفلسفية؟

ما الروافد المعرفية التي يمتحان منها؟

ما مدى حضور السؤال المصطلحي في المشروعين كليهما؟

ما منهجية تحليلهما الخطابات المتنوعة؟

وتبعا لذلك، تناولنا في هذا البحث ثلاثة أسس تهم المشروعين معا وزعناها على ثلاثة فصول يبتدئ كل منها بتمهيد وينتهي بخاتمة، ضم الفصل الأول ثلاثة مباحث فيما ضم الفصلان الثاني والثالث مبحثين في كل منهما، وكل مبحث من مباحث الفصول الثلاثة ضم مطلبين اثنين.

تتبعنا في الفصل الأول قراءة الباحثَين[1] التراث البلاغي العربي وكيفية استثمارها في بناء مشروعيهما، كما رصدنا فيه التقنيات التي وظفها الباحثان في تلك القراءة التراثية؛ لنخلص إلى الحديث عن التصورين الإبستمولوجيين للمشروعين وفق تعريفهما مفهوم البلاغة بشكل عام، ثم انتقلنا إلى الفصل الثاني للحديث عن المنظومتين المصطلحيتين للمشروعين بتحديد مدى حضور السؤال المصطلحي عند الباحثَيْنِ لبناء مشروعيهما البلاغيين، ثم تتبّعنا

---

(1) طلبا للاختصار نستخدم عبارة "البَاحِثَيْن" للدلالة على الأستاذين محمد العمري وعماد عبد اللطيف، ونوظف عبارتي "مَشْرُوعَيْنِ" و"بلاغتين" للدلالة على (البلاغة العامة وبلاغة الجمهور).

أهم مصطلحات المشروعين بالبحث في مفهوماتها من زاوية إبستمولوجية والابتعاد عن الجوانب المعجمية للمصطلحات، ثم خصصنا الفصل الأخير لبحث العلاقة بين البلاغتين استعانة بالعنصر المنسق للبلاغات الذي يحدده الأستاذ العمري في الاحتمال والتأثير ورصد العلاقة على نحو دقيق من خلال بحث مفهومي المُسْتَمَعِ وَالجُمْهُورِ وما يطرحه ذلك من إشكالات سواء تنظيرا أو تطبيقا، وختمنا جولتنا البحثية بالحديث عن المشروعين بوصفهما مقاربتين لتحليل الخطابات.

وفي محاولة الإجابة عن الإشكالية الكبرى والإشكاليات الفرعية استعنا بمجموعة من المراجع على رأسها كتاب "بنية الثورات العلمية" لتوماس كون[1] ترجمة حيدر حاج إسماعيل، كما اعتمدنا قراءة الأستاذ بناصر البعزاتي التي تناولت فلسفة العلم عند الفيلسوف توماس كون؛ لأننا وظفنا مفهومَ الإبدال المعرفي Le paradigme -الذي يُنسب إلى "كُونْ"- في قراءة هذين المشروعين البلاغيين، كما اعتمدنا بشكل أساسي على أعمال صاحبي المشروعين، وخاصة أعمالهما المؤسسة لمشروعيهما سواءٌ أكُتباً كانت أم مقالات. وقد استدعى البحث في مفهوم المُسْتَمَع Auditoire الذي نشأ مع بيرلمان Perelman الرجوعَ إلى كتاباته الأساسية المتعلقة بهذا المفهوم خاصة في غياب ترجمة كاملة لها.[2]

---

(1) توماس كون Kuhn Thomas (1922-1996): فيلسوف علم أمريكي معاصر. أدخل إضافات مهمة في فلسفة العلم. من أشهر مؤلفاته "بنية الثورات العلمية"، طبع لأول مرة عام 1962.

(2) نقصد بشكل خاص كتابيه: "Traité de l'argumentation, La nouvelle rhétorique" و"L'empire Rhétorique, rhétorique et argumentation"

اتسم البحث في العلاقة بين البلاغتين بمتعة استكشاف قضايا فكرية جديرة بالاهتمام والمتابعة واتسم بالحذر كذلك؛ فباستثناء دراسة الباحث جبري المشار إليها سابقا، ليست هناك دراسة تتناول المشروعين معا جنبا إلى جنب بالبحث في العلاقة بينهما، انطلاقا من دعوى الأستاذ العمري بأن البلاغة العامة تضم البلاغات الخاصة جميعها من خلال عنصري التأثير والاحتمال. وللإشارة فالبحث في هذا الموضوع يتجاوز البحث في العلاقة بين المشروعين إلى لفت الانتباه إلى المشاريع الجديدة وضرورة إجراء حوارات بينها، خاصة أنها مشاريع عربية نشأت في بيئة عربية بالاستفادة من المنجز الحضاري.

مدخل

استدعى البحث في علاقة البلاغة العامة ببلاغة الجمهور تَعَرُّفَ تصوري المشروعين على المستوى الإبستمولوجي، أي الأسس التي بُني عليها هذان المشروعان البلاغيان، كما استدعى بحثَ مصطلحات المشروعين في مستواها المفهومي والابتعاد ما أمكن عن جوانبها المعجمية الاشتقاقية إلا في مواضع معدودات؛ فطبيعة هذا البحث تغتني بدراسة المصطلحات من الزاوية الإبستمولوجية أكثر من الزاوية المعجمية.

وبتعميق الرؤية في مسار البحث على امتداد الفصول الثلاثة كلها، يمكن أن نحصر هذا المسار في بعدين اثنين هما:

1 - البُعد التاريخي

يتجلى هذا البعد التاريخي في الاهتمام بالمحطات الكبرى التي شكلت منعطفات حاسمة في تاريخ البحث البلاغي، ووضعها في إطار سياقاتها التاريخية العامة -من خلال منظوري صاحبي المشروعين- فالمعرفة البلاغية تبقى معرفة تاريخية لا تتعالى على الزمن لتصبح في المطلق صالحة لكل زمان ومكان، بل هي خاضعة لشروط أزمنتها في تفاعل مع أسئلة كل عصر على حدة، ويبقى الاهتمام بشكل عام بالبعد التواصلي التداولي للغة في مسيرة التحليل اللغوي الدافع وراء ظهور هذه المحاولات البلاغية التجديدية حين لاحظت تغيرا على مستوى الخطابات التواصلية ووسائطها.

استخدمنا تعبيرا عن رؤية المشروعين التراث البلاغي العربي وحضوره في بنائهما مجابهةً للخطابات المتنوعة وتجاوز العوائق البلاغية في تاريخ ذلك التراث مفهومَ الإبدال المعرفي، وهو ما أتاح لنا تعرف التصور الإبستمولوجي بشكل جلي، كما حضر هذا المفهوم بكونه تقنية وصفية وتحليلية ونقدية

استخدمها الباحثان في تلك القراءة التراثية للبلاغة العربية؛ ولا بد من التنبه لذلك تمييزا بين الأمرين.

تتغير الإبدالات البلاغية عموما، فتتغير معها نظرة الباحثين الملتزمين بالإبدال الجديد إلى الوقائع البلاغية حتى المألوفة قديما؛ ومن ثم تتشكل رؤيا بلاغية جديدة لما هو مألوف بمنظار الإبدال الجديد، ولهذا فالتراث البلاغي العربي هو واحد لا يتغير، ولكن طبيعة رجوع البلاغيين إليه تختلف بينهم بحسب انتمائهم للإبدال الذي يتخذونه سبيلا إليه. ولحظات تأمل عميقة تجعلنا نقف عند طبيعة هذه العودة مع الباحثَيْن، فمحمد العمري يرجع ليرصد إرهاصات البلاغة العامة ويحاول دائما إثبات قواعد إبداله المعرفي البلاغي في مواطن من ذلك التراث، فهو، مثلا، لا يفتأ يذكر قضية التداخل بين التخييل والتداول حين حديثه عن حازم القرطاجني، كما نجده يقتنص الإشارات والعبارات الدالة تلميحا أو تصريحا على عنصري تنسيق البلاغات الخاصة وهما الاحتمال والتأثير.

كما يحضر الرجوع إلى التراث البلاغي العربي والغربي عند عماد عبد اللطيف للتدليل على أن البلاغة في تاريخها المديد منحت المتكلم السيطرة والهيمنة على حساب المخاطب.

2 – البعد المفهومي

يحمل كل مشروع بلاغي من المشروعين تصورا حول المعرفة البلاغية، تُدرك من خلال ما يقدمه كل منهما لحل "المشاكل" البلاغية التي لم يستطع ذلك الإبدال السائد (السكاكي)، وهو ما يدفع إلى تعرف الأسس التي تقوم عليها المعرفة البلاغية مع هذين المشروعين البلاغيين من خلال رصد

القواعد التي يمتلكانها في معالجة الوقائع البلاغية، وغالبا ما تتحول تلك القواعد إلى مفاهيمَ تُبدع في سبيل ذلك، ثم تنسيقها وفق نسق بنائي يشكل الأسس العامة للمشروعين.

إن تشكيل التصور الإبستمولوجي للمشروع ذو أهمية كبرى في عملية التأسيس، و"إبداع المفاهيم" التي تعالج الخطابات المتنوعة ضرورة لتحقيق ذلك التصور، فالمفاهيمَ تمر من مراحل متعددة بدءا من إبداعها أثناء مجابهة وقائع بلاغية تستدعي حلها، ثم مرحلة تجميعها وتنسيقها في منظومة مصطلحية تتعالق فيها، حيث لا يُرى انعزال مفهوم عن باقي المفاهيم الأخرى داخل النسق المؤسَّس له. وتبقى سمة إبداع المفاهيم ملازمة للبلاغيين الذين يعتنقون إبدالا جديدا؛ لأنهم بالإضافة إلى جدة البحث في الإبدال الجديد هم أكثر تحررا من الإبدال السائد وأكثر إعمالا للاجتهاد في معالجة الوقائع البلاغية.

وإننا إذ نتناول المشروعين معا جنبا إلى جنب لا نقارن بينهما، إذ لا تصلح المقارنة بين إبدالين لكل منهما تصوره للمعرفة البلاغية، وإنما همنا كله في معالجة الأسس الإبستمولوجية وتبيان دعوى انتساب بلاغة الجمهور إلى البلاغة العامة انطلاقا من دعوى محمد العمري.

وللبحث في الإشكاليات التي يطرحها البحث عموما، نفترض أن التحليل الإبستمولوجي هو الأنسب لمقاربتها، خاصة أن موضوع بحثنا يستوجب ذلك، فالباحثان يؤسسان مشروعيهما انطلاقا من هذا الجانب ويعالجان المعرفة من هذه الزاوية بشكل خاص، وسيتضح ذلك في ثنايا البحث، ولذلك فهو وسيلتنا في معالجة قضايا البحث وليس غاية في ذاته،

ومن ثم لم يكن لنا وقفة للتعريف بالتحليل الإبستمولوجي، وسنستغل هذه المساحة الصغيرة لإعطاء إشارة عن كيفية اشتغاله، فما يهمنا هو اتخاذه سبيلا في البحث كما أشرنا إلى ذلك.

يرتبط التحليل الإبستمولوجي بالدراسة النقدية للأسس التي تقوم عليها المعرفة العلمية ومفاهيمها ونتائجها، هذه المعرفة العلمية تصدق على البلاغة بوصفها علما تتوفر فيها شروطه وتتحق على نحو ما سيأتي، ومن ثم البحث في الأسس البلاغية والمعرفية عموما والبحث في تقنياتها بشكل متعمق فيما يقوم عليه المشروعان البلاغيان. وعموما "يتناول الخطاب الإبستمولوجي التفكير العلمي في مرحلة تاريخية معينة من مراحل تطوره، ويريد هذا الخطاب أن يظل على وعي بتاريخيته ونسبيته، وألا يقع في خطأ التعميم الواهم للنتائج المحصلة من هذا التحليل التاريخي والنسبي. إن الخطاب الإبستمولوجي إذ يتعلق بالقيم المعرفية لفترة معينة من نمو المعارف الإنسانية لا يريد أن يقع في خطأ إضفاء صبغة الإطلاق على هذه القيم المعرفية"،[1] إن شرط التحليل الإبستمولوجي هو الوعي بالذات والوعي بالموضوع داخل وعي أكبر بحركية الفكر وتاريخيته وقواعده الكلية المؤسسة له.

إن التحليل الإبستمولوجي لا يحضر في مقاربتنا بمنزعه الفلسفي الخالص، بل في إطار مقاربة بلاغية حجاجية تستدعي التخييل في كل قضية تحتاج ذلك، خاصة أن هذه الحقول المعرفية ينفتح بعضها على بعض في إطار تكاملي.

(1) وقيدي (محمد): ما هي الإبستمولوجيا؟، ص:86.

الفصل الأول

المسار التاريخي للمشروعين البلاغيين

تمهيد

يُحتِّم التنظير لبناء مشروع بلاغي ذي خصوصية عربية على المُنظِّر الرجوعَ إلى التراث البلاغي العربي القديم والانفتاحَ في الوقت نفسه على المنجز البلاغي الغربي في بعده التاريخي كذلك، وتتبع محطاته وصولا إلى عصر المُنظِّر؛ ولذلك فالبحث البلاغي في بعده التاريخي يجابه المُنَظِّرَ له بعدة إشكالات منها: ضرورة إعطاء تعريف لمفهوم البلاغة، يعيش في سبيل الإجابة عنه تجربة السفر إلى ذلك التراث يقرؤه منسقا مشاريعَه التي تركها أعلامه بحثا عن العنصر المشترك بينها، ولذلك نجد حضور هذا الرجوع إلى التراث البلاغي العربي بعين منفتحة على المنجز الغربي مع الأستاذين محمد العمري وعماد عبد اللطيف كليهما، وإن اختلفت طبيعة هذا الرجوع، فكيف قرأ هذان الباحثان التراث البلاغي العربي تأسيسا لمشروعيهما؟

سنستعين في رصد قراءة الباحثَين التراث البلاغي العربي بمقولة الإبدال المعرفي التي ستسهم بشكل كبير في تعرف المنهج الذي اتبعه الباحثان كلاهما في تلك القراءة، كما ستعيننا فيما بعد على تحليل هذا المنهج برصد الآليات المتبعة في سبيل ذلك، وسنضطر هنا لتقديم طريقة اشتغال هذا المفهوم بشكل عام ارتباطا بالموضوع البلاغي الذي نبحث فيه، أما عن كيفية توظيفه في قراءة المشروعين فستظهر من خلال المبحثين اللاحقين الثاني والثالث.

المبحث الأول

مفهوم الإبدال المعرفي وقراءة المشروعين

المطلب الأول: مفهوم الإبدال المعرفي

1- تعريف مفهوم الإبدال المعرفي

تتعدد المقابلات العربية للمصطلح الغربي paradigme / paradigm في الساحة الفكرية العربية بين التعريب فنجد (البراديغم والبرادايم) والترجمة فنلتقي مع الإبدال والأنموذج والنموذج وغالبا ما يضاف إليها ألفاظ من قبيل المعرفي أو الإرشادي أو القياسي،[1] وسنختار على امتداد هذه الصفحات المقابل العربي "الإبدال المعرفي" لدلالته على التغير الحاصل في تاريخ الفكر البلاغي العربي، بالإضافة إلى دلالته على المرونة وقابلية التغيير اللذين لا تحيل عليهما المصطلحات العربية الأخرى، فمصطلحا النموذج أو الأنموذج يحيلان على التقليد والإتيان بالمثل، وهذا يتنافى مع ما يحيل عليه الإبدال، فـ: "العمل في إطار إبدال معين غير ملزِم باعتقاد

(1) من هذه المقابلات نجد: الإبدال مع بناصر البعزاتي، والبراديغم مع حيدر حاج اسماعيل والأنموذج الإرشادي مع شوقي جلال في ترجمتها لكتاب بنية الثورات العلمية لتوماس كون، والنموذج القياسي الإرشادي مع يمنى طريف الخولي. ونجد الأستاذ العمري يزاوج في كتابه المحاضرة والمناظرة بين الأنموذج والإبدال، كما أن عماد عبد اللطيف يحافظ على ترجمته بالنموذج الإرشادي.

راسخ في كل مكوناته؛ إذ يمكن الأخذ بإبدال معين، مع الشك في بعض عناصره".[1] فالإبدال لا يُولَدُ مكتملا ولا ينتهي منغلقا على ذاته أمام الوقائع التي تأبى الانصياع داخل نسق واحد، كما أن الإبدال خاضع لاجتهادات المنتسبين إليه.

يَحْضُرُ مفهوم "الإبدال" في تاريخ البحث العلمي وتطوره، وينتمي تحديدا إلى مبحث الإبستمولوجيا Epistémologie أحد فروع الفلسفة، وليس من مهامنا هنا تتبع تعريف هذا المبحث، فمحاولات تعريفه لا بد من أنْ تُجابه بمقارنته بمجموعة من الحقول المعرفية الأخرى كنظرية المعرفة، ومناهج العلوم، وتاريخ العلوم، وفلسفة العلوم... إلخ، ولكن ما يخدم بحثنا في هذا الصدد هو الإشارة إلى أن الإبستمولوجيا هي دراسة نقدية للمعرفة، غير أن هذا النقد الإبستمولوجي "لا يعني إقامة مشكلة فلسفية بناء على قيام نظريات علمية جديدة، بل هو يعني بيان الدلالات المعرفية لتلك النظريات".[2] ولذلك فهناك ترابط بين تاريخ العلوم والإبستمولوجيا، والمعتبر عندنا هو الدراسة النقدية للنظريات بما تنطوي عليه من أسس وقواعد للبحث في الحقل البلاغي، تلك الأسس مستمدة من أنساق معرفية في فترات تاريخية معينة تأخذ بعين الاعتبار تطور المعرفة ونسبيتَها كما هو الشأن مع المشروعين البلاغيين قيد البحث، فدراستهما لا تكون بشكل منطقي إلا إذا أُخذ بالفترة التي ينتميان إليها في علاقاتهما بالأنساق البلاغية السابقة. وقد ارتبط مفهوم "الإبدال" بشكل بارز بتوماس ساموويل كون Thomas Samuel Kuhn (1922 – 1996) في كتابه "بنية الثورات العلمية

(1) البعزاتي (بناصر): البناء والاستدلال، بحث في خصائص العقلية العلمية، ص: 307.
(2) وقيدي (محمد): ما هي الإبستمولوجيا؟، ص:17.

"La structure des révolutions scientifiques" فما مفهوم الإبدال عنده؟

أشار توماس كون إلى أن مفهوم الإبدال في كتابه "بنية الثورات العلمية" سنة 1962، أثار غموضا لدى قارئي الكتاب؛ فجعل حاشيةً ضمّها آخر كتابه في طبعة أخرى سنة 1969، فَصَّلَ فيها المفهوم وأزاح عنه الغموض. ويرتبط هذا المفهوم في هذا الكتاب بمفهومين آخرين، هما: "العلم العادي" La science normale و"المتحد العلمي La communauté scientifique"، ولنبدأ بتعريف العلم العادي، يقول عنه كونْ: "يعني "العلم العادي"، في محاولتنا الجارية، ذلك البحث المؤسس بصورة راسخة على واحد أو أكثر من الإنجازات العلمية السابقة، التي يعتبرها متّحد علمي ما، الأساس لممارسته العلمية اللاحقة"،[1]واختصارا هو مجموعة القواعد والتقنيات التي يطبقها مجموعة من العلماء في اشتغالاتهم، وتتكون تلك القواعد بعد ثورة علمية تحدد رؤية جديدة للعالم عبر إبدال جديد يظل قائما إلى أن تجابِهَهُ وقائع بلاغية يخفق في معالجتها بعد محاولاته التعديلية الذاتية، ويرتبط ذلك بتطور المعرفة عبر مفهوم الإبدال كالآتي:

ما قبل العلم – العلم العادي – الأزمة – الثورة – علم عادي جديد – أزمة جديدة... إلخ

Pré-science – Science normale – Crise – Révolution – Nouvelle science normale – Nouvelle crise …etc

فالإبدال بهذا المعنى، "هو ما يشارك فيه أعضاء متحد علمي"؛[2] لأنه مرتبط بمجموعة الأفكار المتقاربة لعلماء يشتغلون في حقل معرفي واحد،

(1) كون (توماس .س): بنية الثورات العلمية، ترجمة حاج اسماعيل (حيدر)، ص:63.
(2) نفسه: ص:292.

إذ "يسمِّي تومس كونْ هذا المناخ النظري المشترك الذي تنخرط فيه مجموعة من العلماء من نفس الجيل ومن نفس التخصص بـ "الإبدال""،[1] أي إن ما يجمع بين بلاغيَّيْن مُتَعاصرينَ من أفكار متقاربة يشغلونها في تحليل الخطابات المتنوعة لأهداف وغايات محددة في إطار نسقي مرتَّب، هو ما يشكل مفهوم "الإبدال"، ومن هنا، يبرز مفهوم المتحد العلمي أو الجماعة العلمية، وهو ما يتألف "من ممارسين لاختصاص علمي ما. وهم قد اجتازوا تربية تعليمية مماثلة وقبولا مهنيا بمقدار لا يوازيه مقدار في معظم الحقول الأخرى. وخلال العملية تشربوا الأدب التقني ذاته وحصّلوا الدروس ذاتها منه".[2] وطبعا، لقبول نظرية ما على أنها إبدال، فذلك يُحتِّم عليها أن تكون أفضل من سابقاتها في معالجة القضايا المحددة للدراسة.

أشار توماس كون في حاشية كتابه إلى أن مفهوم الإبدال قد ورد بمعنيين، الأول كما ذكر آنفا بوصفه مجموعة من القواعد والتقنيات... إلخ، التي يشترك فيها أعضاء الجماعة العلمية، والمعنى الثاني يأتي بوصفه نوعا واحدا من مجموعة القواعد والتقنيات التي توظف بوصفها إبدالا معرفيا، ولن يفيدنا تتبع الباحثِين استعمالات مفهوم الإبدال عند توماس كون، فالأمر يتطور إلى حد ذكر الباحثة Margaret Masterman ملاحظة مفادها أن مفهوم الإبدال عند كُونْ له رؤية سوسيولوجية وليست فلسفية قائلة بأنه استعمل هذا المفهوم على أحدَ عشرَ وجهاً في كتابه المذكور.[3]

(1) البعزاتي (بناصر): خصوبة المفاهيم، ص:111.
(2) كون (توماس .س): بنية الثورات العلمية، ص:293.
(3) Willett (Gilles): "Paradigme, théorie, modèle, schéma: qu'est-ce donc?", p2.

يتأسس مفهوم الإبدال عند توماس كون على ملاحظة تاريخ العلم وتطوره عبر محطات أساسية، تُعرفُ بإبدالاتها، والتاريخ يحيل على التطور والتغير في ارتباطه بالواقع المعيش، ومن ثم بداهةُ تَغيّر هذه الإبدالات، وارتباطا بالبحث البلاغي نصبح أمام ضرورة تجديد تعريف البلاغة بتغير إبدالاتها، وفي ذلك تصريح بتجديد المعرفة البلاغية وفق أسئلة العصر التي يجب أن تجيب عنها إبدالات جديدة إن لم تستطع ذلك الإبدالات السابقة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الإحساس أولا بوجود عوائق إبستمولوجية لم تَعُدْ المعرفة البلاغية السائدة قادرة على التصدي لها، ثم التدليل على ذلك وفق نظام استدلالي معين، يبرز الظواهر التي تستعصي على الإبدال السائد لاقتراح الجديد، ويربط المعرفة الموروثة بالمعرفة المستجدة في إطار التقدم الكَوْنِي للعلم. غير أن هذا الانتقال أو الطفرة لا يمكن أن تكون فجائية، فـ "لا يمكن أن يكون الانقطاع بين الإبدالين، الجديد والقديم، كليا؛ إذ لا بد من تسجيل عيوب جزئيات الإبدال السابق بطريقة تنفتح على بلورة عناصر الإبدال الجديد؛ كما لا يمكن أن يتم التحول من إبدال إلى آخر في شكل قطيعة جذرية"،[1] وهذا حاصل بشكل ملحوظ مع الأستاذ محمد العمري، فعودته إلى التراث البلاغي العربي كانت من أجل التنقيب عن تلك الأنساق التي تسهم في تجاوز الإبدال الذي يسود البحث البلاغي العربي متمثلا في "السكاكي" (ت626هـ) وتابعيه من شراح وملخصين وصولا إلى العصر الحديث، أي مع المحاولات المدرسية المشكلة للإبدال الذي عرف مع السكاكي طوال عصور ما سمي عصورَ الانحطاطِ. وهو ما نلمسه كذلك في محاولة دمج عماد عبد اللطيف بلاغة الجمهور -بوصفها مستوى

(1) البعزاتي (بناصر): خصوبة المفاهيم، ص: 126.

من مستويات التحليل- في خطوات تحليل البلاغة التقليدية وفي محاورته البلاغة القديمة تبيانا لما يقصده المتكلم من هيمنة وسيطرة على المخاطب وخدمة البلاغة مقصديةَ المتكلم بما تقدمه له من وسائل وتقنيات.

إذا كان مفهوم الإبدال يتحدد في إطار تقارب أفكار الجماعة التي تشتغل في حقل معرفي واحد، فكيف يمكن الحديث عن هذا الأمر من خلال صاحبي المشروعين اللذين يتراءى أنهما يشتغلان بشكل فردي؟

يقول بناصر البعزاتي في هذا الصدد: "ومن الصعب، وربما من المستحيل، تصور عالم يشتغل خارج كل إبدال، وباستقلال عن كل جماعة. وحتى عندما يعيش عالم ما منعزلا، فإنه في نشاطه العقلي، يحاور علماء آخرين ويتواصل معهم، ويستحضر آراءهم ويناقشها في ذهنه، ويسأل ويجيب، ويعترض ويؤيد؛ إذ المعرفة، خصوصا المعرفة العلمية، نسيج جماعي، وليست إنشاءات لأفراد منزوين على أنفسهم"،[1] إن هذه الملاحظة تصدق على صاحبي المشروعين قيد الدراسة؛ ففي تأسيس مشروعيهما تجدهما يحاوران المنجزات البلاغية التي تنتمي إلى التراث أو المستحدثة التي لم يكتب لها التطور، ولذلك فالحديث عن إبدالين بلاغيين مع صاحبي المشروعين سيرتبط حتما بمحاورتهما التراث البلاغي العربي من خلال المنجز الغربي الذي يشكل هو الآخر رافدا من روافدهما، وعلى سبيل المثال نجد الأستاذ العمري في معرض حديثه عن المنظومة المصطلحية لمشروعه البلاغي يقول: "هل تعتقد أنني أتيتُ بشيء من هذه المفاهيم والمصطلحات من عندي؟ لقد بالغت، إذن، في حسن الظن ! أنا مُتَّبِعٌ في هذا المجال للكبار من القدماء

(1) نفسه، ص:115.

والمحدثين. "علم البطن" إنما يُنسبُ للعنكبوت؛ هو الذي ينسج شبكته من بطنه متى شاء أينما شاء"،[1] ويتضح الأمر أكثر في جذب إبداليهما مجموعةً من الباحِثِين لتوسيع دائرة البحث من خلال البحث عن المشكلات التي يسميها كُونْ حالات عدم التوقع ومعالجتها وفق الإبدال الجديد لتلك الجماعة العلمية.

2 - الإبدال المعرفي بين العلم الدقيق والعلم الإنساني

نهدف من وراء هذا العنوان إلى إبراز إمكان الحديث عن مفهوم الإبدال في الحقل البلاغي الذي ينتمي إلى العلوم الإنسانية، فإذا كان حديث تطور العلوم بحسب الإبدال المعرفي نشأ مع العلوم الحقة مثل الفلك والرياضيات والفيزياء، فهل يجوز الحديث عن تطور إبداليّ في العلوم الإنسانية؟

لقد أشار توماس كون نفسه إلى هذا الأمر وجعل شرعية ذلك أولا في وصف حقل من الحقول المعرفية علما، كما هو الشأن بالنسبة لبحثنا، فحديثنا هنا عن "علم البلاغة"، أي بوصف البلاغة علما بمعناه الوصفي والتحليلي. ثم يحدد رأيه في القضية بقوله: "نميل إلى رؤية أي حقل يحصل فيه تقدم على أنه علم"،[2] إذ جعل معيار علمية أي حقل هو "التقدم"، أي إنه ما دام يتقدم فهو علم. ولا نجد في ذلك صعوبة فيما يتعلق بعلم البلاغة لاسيما وأنه مرتبط بوقائع تاريخية تبرز تطوره عبر انتقالاته، كما أن تغير الخطابات وتنوعها في عصرنا يبرز تطور علم البلاغة مع هذين الإبدالين البلاغيين الجديدين. ونشير إلى أن وصف البلاغة بالعلم يحضر

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:77.
(2) كون (توماس .س): بنية الثورات العلمية، ص:273-274.

بشكل مفصل في تعريفي الباحثين كما سيأتي، كما أن لتوماس كون دراسة مقارنة حول العلاقة بين العلوم والفنون.[1] فقد "قد حرص كُون على إبراز أنه لا يوجد خلاف جوهري بين التطور في الفنون والآداب والنظم السياسية والإنسانيات والتطور في العلم".[2]

إن وصف حقول "العلوم الإنسانية" بالعلمية مقبول عند توماس كون، "غير أن الإزعاج كان أشد بالنسبة للآخذين بالتصورات الكلاسكية للعقلية العلمية، من وضعانية وصورانية وعقلانية، التي تختزل عقلية العلم في صرامة اللغة المنطقية الصورية. أما المنفتحين على المكونات الفلسفية والملابسات التداولية للعلم، فقد وجدوا في تحليل كُونْ أسلوبا مألوفا"،[3] وإننا نجد في هذا البعد التداولي مع كون سندا أساسا في معالجة البلاغة بمفهوم الإبدال المعرفي، لا سيما أن كُونْ يركز "على تداولية المفاهيم ومؤسسية المعرفة بخلاف العقلانيين التقليديين"،[4] ومن هنا تتجلى بوضوح العلاقة التي نربطها بين الفلسفة في قسمها الإبستمولوجي والبلاغة، "فالإنسانيات، عبر تطورها، تحاول الاستفادة مما ينجز في العلوم "الحقة" من أجل تمتين سبل بحثها والتعبير عن نتائج استطلاعاتها بالأعداد والمنحنيات والجداول في سبيل تعليل عقلي للظواهر. ومن هنا ذلك التداخل بين التحليل الإبستمولوجي والدراسات الإنسانية والاجتماعية، إلى درجة أن كل مدرسة في هذه الدراسات تقوم على

(1) Kuhn (Thomas): Comment on The relation of science And Arts, in: Comparative studies in philosophy And History, 1969.

(2) طريف الخولي (يمنى): "نحو توطين المنهجية العلمية في العالم الإسلامي.. رؤية فلسفية"، ص:128.

(3) البعزاتي (بناصر): خصوبة المفاهيم، ص:116.

(4) نفسه، ص:115.

خلفيات إبستمولوجية، صريحة أو مضمرة، وأن لكل تصور إبستمولوجي امتدادات في مدرسة معينة من تلك الدراسات".[1] والحرص على توضيح هذا الأمر سيقودنا فيما بعدُ إلى التعريج بين الفينة والأخرى على الحديث عن الخلفيات الفلسفية والروافد المعرفية للمشروعين.

يتحقق مفهوم "الإبدال المعرفي" في هذه الصفحات من خلال تتبع الباحثَين تصورَ البلاغيين العرب القدامى لمفهوم البلاغة والمعرفة البلاغية بشكل عام، وتصنيف تلك الإبدالات واختيار ما يلائمهما منها في عملية اكتشاف إبدال معرفي جديد يحاول تجاوز العوائق التي استعصت على الإبدال السائد، وتتمظهر عملية الاكتشاف من خلال تجاوب بين المعرفة البلاغية وأسئلة العصر، كما يحضر هذا المفهوم من خلال تحلق باحثِينَ آخرينَ حول هذين المشروعين البلاغيين، تطويرا لهما واشتغالا بهما في مقاربة خطابات حياتنا المعاصرة، ليتشكل فيما بعد إبدالان بلاغيان جديدان، ثم تأتي مرحلة أخرى تتجلى في لغة ثانية واصفة للمشروعين البلاغيين بكونهما إبدالين معرفيين في الحقل البلاغي المعاصر.

يحيل مفهوم الإبدال إذن على تعالقات مفهومية في إطار نسقي، هو ما نصطلح عليه هنا المشروع البلاغي، ففي ضوء هذا الإبدال الذي يحدد تعريف البلاغة عند الباحثَين تُنسج شبكة مفهومية تُشَكِّلُ منظومةً مصطلحية، تضم مجموعة من المفاهيم التي يطلب كل منها الآخر ويحاوره، فكل إبدال منهما ليس منغلقا، بل يحاول الانفتاح من أجل تحقيق انتشار أوسع على مستوى مجابهة الوقائع البلاغية الجديدة على البحث البلاغي، كما يحاول

(1) نفسه، ص: 326-327.

الانفتاح على إبدالات نظرية أخرى، فعودة مرة أخرى إلى إشكالية البحث، نستخلص دون عناء أن "البلاغة العامة" تؤسس إبدالا معرفيا ينفتح على إبدال "بلاغة الجمهور"، كما أن "بلاغة الجمهور" تؤسس هي الأخرى إبدالا يحاور إبدالات أخرى ويحاول الاندماج معها بوصفه يعالج جزئية ضمن المعرفة البلاغية كما سيتضح لاحقا. ومجمل القول: إن "الإبدال ليس كيانا جامدا مترسخا، بل ينمو، وتتحول مكوناته، وإن ببطء؛ والثورة العلمية ليست انقلابا يقطع مع كل عناصر الماضي، بل تتبلور التحولات خلال عقود من البحث".[1]

المطلب الثاني: منطقة تقاطع المشروعين

يتطور العلم بحسب توماس كون بشكل انفصالي من خلال إبدالات معرفية يشكل كل إبدال ثورة علمية، أي إنه لا يَتصور المعرفة بشكل تراكمي تكون فيها الأفكار متسلسلة يأخذ بعضها ببعض، وكذلك نرى المعرفة البلاغية، إذ يُلحظ أنها تتطور من خلال ما يحدث فيها من انفصالات يظهر فيها الإبدال الجديد بعد أزمة علمية للإبدال السابق، ويظهر الأمر جليا مع هذين المشروعين مثلا، إذ لا يمكن أن نفهم نظرتهما للبلاغة بما عهدناه من مفهوم البلاغة عند السكاكي (ت626هـ) والقزويني (ت739هـ) وأتباعهما، أي الإبدال الذي يسود وما يزال منذ القرنين السابع والثامن إلى أيامنا هذه، فبمجرد أن تطرح السؤال عن البلاغة سيتبادر إلى الأذهان

(1) البعزاتي (بناصر): خصوبة المفاهيم، ص: 124-125.

ذلك التقسيم الثلاثي (البيان والمعاني والبديع) الذي عُرف مع السكاكي وترسخ بسبب الخطيب القزويني الذي كتب مُلخِّصا ثم مُوضِّحا، ليُسال مداد الشراح والملخصين بعده على مر القرون على الرغم من المحاولات التحديثية التي عُرفت مع مشاريع لم يكتب لها النجاح والاستمرار، نذكر من ذلك مجهودات أمين الخولي وأحمد الشايب ومصطفى ناصف، بل على الرغم من محاولات بَلاغِيٍّ مُعاصِر للسكاكي وهو حازم القرطاجني (ت 684)، الذي بنى مشروعا بلاغيا ضخما جعل المجددين في البلاغة العربية يعتزون به وينهلون من معينه فيما يخدم رؤاهم البلاغية، وأكثر هؤلاء المجددين عودة إليه الأستاذ محمد العمري الذي يستشهد بآرائه كلما كان في معرض الحديث عن التأسيس لمشروعه "البلاغة العامة" وبخاصة في سياق البحث في منقطة تقاطع التخييل والتداول، ولكن هذا الالتفات إلى مشروع حازم القرطاجني لم يُعن به أحد من معاصريه آنذاك، فـ"منهاج حازم لم يحظ في الماضي بقارئ طموح يعيد قراءته، ويتيح له ما يستحقه من ذيوع وانتشار مثلما أتيح لمفتاح العلوم للسكاكي"،[1] وإذا كان الرجوع إلى منهاج حازم تأسيسا لمشروع بلاغي جديد فالسؤال الذي يُطرح في هذا الموضع هو: كيف تحقق هذا الرجوع إلى التراث البلاغي العربي بشكل عام؟ سواء تعلق الأمر بحازم أو الجرجاني أو الجاحظ. لا سيما أن الانتقال بين الإبدالات المعرفية عند توماس كون يطبعه طابع الصراع والغلبة لأحد الإبدالين على حساب الآخر، وهذا ما لاحظه بناصر البعزاتي قائلا عن هذا التصور بأنه: "ينتج عنه أن لا مجال للمرور من تقليد إلى آخر عن طريق الحوار والاستدلال، ولا عن طريق الترجمة؛ وكأن بين الجهتين صراعا

(1) الغرافي (مصطفى): "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم"، ص:250.

مذهبيا، لا يمكن أن يفض إلا بانتصار أحد الطرفين"،[1] ثم يردف بعد ذلك تساؤلا حول هذه القضية قائلا: "هل من الضروري أن تنطبق هذه اللغة المشحونة بملامح الصراع السياسي والمذهبي في مجال التحولات المفهومية، بدرجاتها المختلفة، التي تعرفها التقاليد العلمية".[2] ومن ثم فحتى تصور أن العلم ثوري يتطور من خلال إبدالاته بشكل انفصالي، فذلك لا يعني انقطاعا تاما أو قطيعة جذرية بين تلك الإبدالات كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

يستدعي الخوض في مفهوم القطيعة الحديث عن قضية اللامقارنة incommensurable بين الإبدالات، فقد يتراءى للقارئ أننا نقارن بين الإبدالات، والأمر ليس كذلك، فالمقارنة غير منطقية وليست سهلة حتى إذا أريد ذلك، لأن "المنافسة بين البراديغمات ليست ذلك النوع من المعارك الذي يمكن حسمه بالبراهين"،[3] والأولى من ذلك، هو التنبيه على أن المقارنة لا تحصل بسبب اختلاف النظرة إلى علم واحد وهو البلاغة، فالبلاغة بوصفها علما تختلف تعاريفها بحسب الإبدالات المعرفية كما سيأتي، ومن ثم فلا أساس للمقارنة وإنما هو بحث في ملاءمة الإبدال البلاغي لمجابهة خطابات العصر الذي ينتمي إليه ويعيش فيه، ولذلك فإبدال السكاكي ومن معه مقبول لأنه كان يجيب عن أسئلة عصره ولكن الأمر يختلف في تنصيبه للإجابة عن أسئلة عصر آخر مغاير له تماما، أو بالأحرى تشبث باحثين معاصرين به في بحثهم البلاغي، والمقصود بالأسئلة هي المشكلات

(1) البعزاتي (بناصر): البناء والاستدلال، ص:313.

(2) نفسه، ص:313.

(3) كون (توماس .س): بنية الثورات العلمية، ص:254.

التي تجابه الإبدال القديم في تقديم إجابة عنها، وبعبارة أخرى تظهر الحاجة لتغيير الإبدال كلما كثرت العوائق الإبستمولوجية أمامه.

نستخلص من الفقرة السابقة أمرا مهما يتجلى في البحث عن دواعي ظهور إبدالين بلاغيين جديدين، كما تجعلنا نبحث في مدى عجز الإبدال القديم أو السائد عن تقديم الإجابة للمشاكل أو العوائق التي يتصدى لها الإبدالان الجديدان، وكل ذلك ضمن الإشكالية الكبرى التي يعالجها البحث والمتمثلة في علاقة البلاغة العامة ببلاغة الجمهور.

أما فيما يخص المقارنة غير الممكنة بين النظريات فهي لا تعني غياب التواصل بين المنتسبين إليها، والأمر الثاني هو أن على طرف إقناع الطرف الآخر بنظريته وصلاحيتها للإجابة عن مشكلات العصر الذي تنتمي إليه. ولكن هذا الأمر يتعلق بإبدالين مختلفين في الرؤية البلاغية، فهل يصدق الأمر على إبدالي هذين المشروعين البلاغيين؟

قبل أن نتحدث عن خصوصيات المشروعين منفردين، نود تقديم نظرة مشتركة تجمع بينهما بوصفهما يشتركان في دراسة الخطابات المتنوعة، فما المشترك بينهما في مسار الفكر البلاغي العربي؟

يشترك مشروعا "البلاغة العامة" و"بلاغة الجمهور" في التركيز على البعد التداولي للخطابات، وخاصة الخطابات المستجدة التي لم تعرفها البلاغة التقليدية، وبذلك تم الاهتمام بالمستوى الحجاجي الإقناعي إلى جانب المستوى الأسلوبي الجمالي، كما أن دراساتهما البلاغية اهتمت بالخطاب ولم تحصر نفسها في الجملة، كالذي بات ذائعا عن البلاغة ذات التقسيم الثلاثي (البيان والمعاني والبديع) منذ السكاكي إلى عصرنا الحاضر، وتكفي إطلالة

سريعة على ما يُدَرَّسُ في التعليمين الثانوي والجامعي بالمغرب مثلا، على تبين رسوخ ذلك التقسيم الثلاثي للبلاغة في الأذهان، تقسيم يتعامل مع الشواهد الجمل وليس الخطابات، بل يكتفي بإيراد العنصر البلاغي وتعريفه وإعطاء أمثلة مجزأة عنه. وننبه هنا إلى أن محمد العمري يشير إلى اهتمام البلاغة العربية بالنص مع الجرجاني في إطار البناء على الصور البلاغية قائلا: "فلو دُرست هذه القضية بعمق لتبين لنا أن البلاغة العربية لم تكن كما هو شائع بلاغة جُملة، على الإطلاق. بل كانت إنجازاتها المتقدمة العميقة قد انتقلت إلى مستوى النص"،[1] وهذا وجه من أوجه اعتماد الجرجاني سندا أساسا في بناء مشروع البلاغة العامة عند الباحث. كما أن تلك الدراسات الجديدة للباحِثَيْن تجاوزت البعد اللغوي إلى دراسة العناصر السميائية للخطابات لما لها من تأثير وإقناع على المستوى الحجاجي.

هذا فيما يخص نوعية الخطابات المدروسة، أما محددا هذه الخطابات، فهما الاحتمال والتأثير؛ لأن طبيعة تلك الخطابات تتحدد بكونها خطابات نسبية وليست مطلقة، وبذلك فالتأثير يكون بالاختيار من الاحتمالات قصد التأثير والإقناع سواء كان هذا الاختيار يمتح من معين تخييلي شعري أو تداولي حجاجي أو منهما معا.

يتأسس هذا التطلع الجديد في إطار رؤية الباحثَين المغايرة للعالَم وحتى للعلم، فوظيفة البلاغة عندهما مغايرة لما ألفناه عند السابقين، وخاصة عند المتشبثين بشروحات السكاكي، هذه الرؤية ستتوضح معالمها على امتداد الصفحات المقبلة، وهذه الرؤية الجديدة جعلت الباحثِين في البلاغة

---

(1) العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:34.

ينقسمون إلى قسمين، القسم الأول ينادي بالتجديد انطلاقا من التراث محاولا التدليل على الإبدال الجديد، وهنا نموقع عمل الباحثَيْنِ، والقسم الثاني يتشبث بالإبدال القائم والمسيطر، "فدائما ما يظل هناك بعض الأفراد الذي يتشبث بواحد أو آخر من وجهات النظر القديمة، وهذا البعض يصبح وبكل بساطة، خارج المهنة التي تتجاهل عملهم في ما بعد"،[1] وفي هذا الصدد يتضح جليا العمل الذي يرمي إليه الأستاذ العمري في كتابه "المحاضرة والمناظرة" حين حاول الدفاع عن الإبدال الجديد أمام الأستاذ رشيد يحياوي الذي يلتزم بالإبدال السائد. لقد ميز الأستاذ محمد العمري في السياق المتعلق بتأليف هذا الكتاب بين سياقين: عام وخاص، يتعلق السياق العام بالتأسيس لمشروع البلاغة العامة، فيما السياق الخاص هو تصدٍ للبحث الذي أنجزه الأستاذ رشيد يحياوي، قائلا: "إن حيثيات تأليف هذا الكتاب تعود إلى سؤال تاريخي عام وخاص: السؤال العام، هو سؤال اللحظة الكبرى الممتدة بين زمن "الأسرار" و"الخصائص"، وزمن "التلخيص" و"الحواشي"، هذا السؤال هو السياق العام لهذا الكتاب، وعليه المدار، وبه الاعتبار. أما السؤال الخاص، فهو سؤال اللحظة الطارئة، أو الواقعة التي حيّنت السؤال العام، وفرضت على شخص معين التصدي للجواب عنه هنا (المغرب)، والآن (2015). يتعلق الأمر بالهوة المتعمقة بين البحث عن بلاغة عامة حديثة، من جهة واجترار مفاهيم البلاغة المختزلة، من جهة أخرى".[2] فالسياق العام للكتاب إذن، هو جواب عن السؤال التاريخي الإبستمولوجي الآتي: "لماذا تستمر الهوة بين البلاغة المختزلة

(1) كون (توماس .س): بنية الثورات العلمية، ص:76.
(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:28.

المتحجرة تنظيرا وتمثيلا وتطبيقا والبلاغة الجديدة المتولدة عن إعادة قراءة التراث في ضوء المنجزات العلمية الحديثة: الأولى تستولي على المقررات الدراسية والأقسام والمدرجات، والثانية تتنفس في الندوات والمجلات المتخصصة والمؤلفات؟".[1] أما السياق الخاص فهو نقد التصور البلاغي لكتاب التبالغ والتبالغية للأستاذ رشيد يحياوي،[2] الذي نال به درجة الدكتوراه سنة 2000 وجائزة المغرب للكتاب سنة 2015.

وهو الأمر نفسه الذي يحدث مع عماد عبد اللطيف بشكل أقل حدة، فهو يقول عن مشروعه: "اقترحت توجها رابعا[3] للدرس البلاغي يقترح تغييرا جذريا في النموذج الإرشادي للبلاغة العربية... يشمل مادة العلم، ووظيفته، وأسئلته المعرفية، وعلاقاته بالعلوم الأخرى. ومن الطبيعي أن يلقى هذا المقترح مقاومة من المتشبثين بالنماذج الإرشادية القديمة".[4]وهذه سُنَّة التبديل في أي مجال، ويبقى الاحتكام للعقل الفيصل في معرفة أي الفريقين على صواب، متجنبين القول الذي يقول: "هذا ما وجدنا عليه آباءنا". وكل معرفة لا تفتح صدرها للنقد فلا يُرجى منها فائدة، وما تَقَبُّلُ النقد إلا رغبة في ترسيخ القَدم ومواصلة المسيرة العلمية.

والتحول من الإبدال القديم نحو الجديد ليس تراكميا، بل هو إعادة بناء بعد تأمل طويل في المعرفة البلاغية، غير أن تلك القطيعة بين الإبدالين لا تكون واضحة بشكل كبير، فالتداخل حاصل في فترة الانتقال بينهما،

---

(1) نفسه: ص:28-29.

(2) يحياوي (رشيد): التبالغ والتبالغية، نحو نظرية تواصلية في التراث، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1، 2014.

(3) يصنف عبد اللطيف التاريخ البلاغي العربي إلى ثلاث بلاغات تُعَدُّ كل بلاغة ممثلة إبدالا.

(4) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:34.

مما يجعل الإبدال الجديد خاصة في بدايته يتكئ نوعا ما على حل بعض المشاكل التي تعترض طريقه ببعض قواعد الإبدال القديم، ويمكن إعطاء مثال لذلك من المشروعين، فمع بلاغة الجمهور صرّح عبد اللطيف في معرض حديثه عن بناء عدة بيداغوجية لترشيد استجابات الجماهير، بأنه سيعتمد في ذلك على ما تتيحه بلاغة المتكلم "من الخبرات البيداغوجية التي طورتها... على مدى عصور متعاقبة، والتي تحتاج إليها بلاغة المخاطب في إنجاز البعد البيداغوجي لها".[1] أما مع محمد العمري فالأمر جلي في توظيفه مثلا مفاهيم تنتمي إلى إبدال "بلاغة الانتشار" كما سيأتي.

لقد رأينا فيما سبق أن المشروعين يشتركان في اهتمامهما بالبعد التداولي للخطابات، ولذلك فطبيعة البحث في المشروعين نابعة من فرضية إمكان وجود علاقة بينهما، تلك العلاقة التي تزعمها البلاغة العامة بالبلاغات الخاصة ومنها بلاغة الجمهور. وبذلك ندفع التناقض الذي قد يتبدى في الإقرار هنا بالتكافؤ بين الإبدالين بسبب ما يشتركان فيه وبين تبني فكرة اللاقياسية بين الإبدالات فيما بعد، فالتكافؤ هنا لا يمس إلا جوانب معدودة لا تصل إلى درجة المطابقة بين المشروعين. فمن الملاحظ على المشروعين أن قيام مشروع البلاغة العامة على البحث في منطقة التقاطع بين التخييل والتداول يجد له ما يعززه ويربط به الصلة من التراث البلاغي العربي وعلى العكس من ذلك نجد مشروع بلاغة الجمهور يتأسس على تصور جديد يقطع صلته بالتراث البلاغي، إذ لا يمكن أن نجعل بلاغة الجمهور امتدادا لتصور البلاغة العربية القديمة لأنهما على

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، ص: 20.

طرفي نقيض بين بلاغة للمتكلم وبلاغة للجمهور، أي إن بلاغة المتكلم بلاغة هيمنة وسيطرة في مقابل بلاغة الجمهور التي تعمد إلى مقاومة تلك السلطة وتقويضها.

المبحث الثاني

الإطار الإبستمولوجي للبلاغة العامة

رصد الأستاذ محمد العمري البعد التاريخي للبلاغتين العربية والغربية؛ إذ تتبع المشاريع البلاغية العربية في عمل نسقي جسده في كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"، كما تتبع المحطات الأساسية لتطور مفهوم "البلاغة" في الثقافة الغربية ضمّه كتابه "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" في إطار عمل تركيبي يحاول دمج جناحي البلاغة اللذين يجسدهما التخييل والتداول في سبيل بناء بلاغة عامة.

وسنحاول في هذا المبحث الوقوف عند الآليات التي اعتمدها الأستاذ العمري في قراءته التراث البلاغي في الثقافتين العربية والغربية، وبشكل خاص التراث البلاغي العربي لبناء مشروعه البلاغة العامة، وسنعمد في استخراج تلك الآليات على آخر أعماله إلى حدود اللحظة، وهو كتابه "المحاضرة والمناظرة"؛ فالأستاذ العمري يعالج في هذا الكتاب البلاغةَ العربيةَ من زاوية إبستمولوجية، في شكلين خِطابيين مختلفين، جعلهما عنوانا لهذا الكتاب؛ فـ""المحاضرة" و"المناظرة" طريقتان في معالجة المعرفة: الأولى تؤسسها بتقديم المفاهيم والأنساق، والثانية تحصنها بدفع الشبهات ومقاومة جاذبية المعرفة المترسخة المناوئة لكل جديد"؛[1] ومن ثم فهذا الكتاب

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:5.

هو لبنة من لبنات أخرى[1] تشكل مشروعَه البلاغي الذي سماه البلاغة العامة. ويبقى هذا الكتاب ثمرة الأعمال التي سبقته، فقارئ هذا الكتاب يقف عند استحضار العمري كتاباتِه من باقي المؤلفات الأخرى المؤسِّسة لمشروعه، ولذلك سنتخذه أساسا نبني فوقه -وفق تصورنا لمشروعه- أفكاره المُؤسِسة لمشروعه باستدعاء أفكاره وتصوراته التي تضمنتها كتاباته الأخرى، وخاصة، إذا علمنا أن هذا الكتاب هو الوحيد من مؤلفاته الذي يحمل صراحة اسم المشروع وهو "البلاغة العامة" وإن بدا عنوانا فرعيا لعنوان رئيس هو "المحاضرة والمناظرة"، فالمحاضرة هي التأسيس لمشروع البلاغة العامة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكما سيأتي لاحقا.

المطلب الأول: الإبدال المعرفي والتأسيس لمشروع البلاغة العامة

1 - منهجية قراءة التراث البلاغي

تأسست قراءة التراث البلاغي العربي عند محمد العمري على إبدالين متباينين، من خلال الرصد التاريخي للمشاريع البلاغية العربية، نتج عنها استلهام الإبدال المعرفي الذي ترتكز عليه البلاغة العامة. لقد حوَّل الأستاذ محمد العمري السياق إلى معرفة ترصد تاريخ اختزال البلاغة العربية، من زمن الجاحظ والجرجاني وحازم القرطاجني إلى زمن السكاكي والقزويني والتفتازاني وصولا إلى الكتب التي ذاعت بين الناس في عصرنا الحاضر، مثل كتب مصطفى المراغي وعبد العزيز عتيق ومن سار على دربهما.

(1) نمثل لكتب العمري محمد المؤسسة لمشروعه بـ:(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وأسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، والمحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، كلها من منشورات أفريقيا الشرق).

تؤكد قراءة الأستاذ العمري التراث البلاغي العربي أنه جمع بين الدراسة التاريخية للبلاغة والتنظير الإبستمولوجي لها معتمدا مقولةَ الإبدال المعرفي[1] في تقسيم البلاغة العربية إلى إبدالين معرفيين مختلفين، وقبل أن نتحدث عن هذين الإبدالين سنقدم رؤية عامة تبرز دور التاريخ في التأسيس لمشروعه، وخير ما نستجوبه في هذا الصدد كتابه "البلاغة العربية..أصولها وامتداداتها"، فقد جعل التأريخَ للبلاغة العربية قراءةً معتقدا بأنه يلزم "إعادة الكتابة كلما تغيرت شروط القراءة وظروفها".[2] وبوحي من الدراسات الغربية في الستينيات عن تاريخ البلاغة الغربية كَتَبَ مجموعة من المؤلفات عن تاريخ البلاغة العربية والتنظير لها ذكرها كالآتي:

أ- تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية (الكثافة، الفضاء، التفاعل). الدار العالمية -الدار البيضاء- 1991.

ب - الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية. نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية. منشورات سال. الدار البيضاء 1991.

ج - اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم. مساهمة تطبيقية في سبيل كتابة تاريخ للأشكال. منشورات سال. الدار البيضاء 1989.

د - في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا. دار الثقافة. الدار البيضاء. 1986.[3]

---

(1) استخدم محمد العمري مصطلح الأنموذج (ص:13) ومصطلح الإبدال (ص:65) في كتابه المحاضرة والمناظرة، كما نجد كذلك الإبدال في (ص: 12) من كتابه "أسئلة البلاغة".

(2) العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:9.

(3) نفسه: هامش ص:11.

كانت هذه القراءة التاريخية التي تجمع بين الوصف والتفسير تركيبية وتنسيقية كما ذكرنا آنفا بفضل توسيع دائرة الاشتغال وبفضل الأدوات المستخدمة في القراءة وبخاصة ما استمده الباحث من مفاهيم جمالية التلقي في بعدها التاريخي، فكان من نتائج هذه النظرة الشمولية لتاريخ البلاغة العربية، بالإضافة إلى الوقوف عند الأنساق البلاغية العربية، أن جعلته يعيد النظرة في علاقة البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية أو بالإرث الأرسطي تحديدا، وإننا إذ نشير إلى هذه القضية لا نريد بذلك إعادة ما جاء في الكتاب ولكن للإشارة إلى أن هذه القراءة العربية للبلاغة اليونانية تمثلت عند الباحث بتلك الرؤية التي أسس بها مشروعه البلاغي، فقد قال: بأن "الفلاسفة العرب لم يكونوا مشغولين بالتطابق مع أرسطو... بل هم صريحون في أن ما يهمهم هو الكليات أو القوانين العامة عند كل الأمم أو أغلبها. القوانين التي تتسع لكل الخصوصيات القومية"،[1] وهي الرؤية نفسها التي يؤسس بها مشروع البلاغة العامة التي تنسج علاقاتها بالبلاغات الخاصة، علاقة يحكمها قبض البلاغة العامة على العنصر المشترك أو العنصر المُنَسِّق بين البلاغات الخاصة كلها مع حفظ خصوصياتها. لقد لمس هذه الرؤية عند حازم القرطاجني فقال عنه: "ومن الأكيد أن حازما كان يشعر أن البلاغات السابقة على عصره كانت بلاغات جزئية، لأنها لم تعتمد هذه الأصول التي تضمن، وحدها، الوصول إلى البنيات المشتركة بين الظواهر"،[2] والأصول التي يتحدث عنها هي المنطقية والفلسفية، ويمكن الجزم بأن هذه المَهمة التي خاض فيها الفلاسفة المسلمون في تفاعلهم "الحضاري" مع المنجز

(1) نفسه، ص:12.

(2) نفسه، ص:465.

الأرسطي واستأنفها حازم هي المهمة نفسها التي يواجهها محمد العمري في مشروعه البلاغي القائم على استخلاص القوانين الكلية لعلم البلاغة.

2 - التفاعل الحضاري

حضر عنصر "الآخر" بقوة سواء في تأريخ العمري البلاغة العربية أو تنظيره لها، فقد ورد في كتابه "المحاضرة والمناظرة" بوصفه مفهوما أساسا بعنوان "الكونية" مقابلا "للعندية" في سياق حديثه عن المقام، وهو يحيل على إشكالية التراث والحداثة، فالعندية حسب الباحث وَهْمٌ ناتج عن إمكان الاستغناء بالتراث عن التطور المعرفي الحاصل عند الآخر لعائق من العوائق، "قد يكون نفسيا وقد يكون مصلحيا"،[1] إن لم يكن الجهل به هو السبب، فالعندية هي الادعاء الناتج عن البحث في العنصر "العربي الأصيل" "الذي لم يطمثه فُرْسٌ ولا هنْدٌ ولا يونانٌ، ثم يُحْضِرُونَه إلى العصر الحديث ليكون "واقيا" لهم من البنيوية والسميائيات والحداثة والتلقي والبلاغة الجديدة...".[2] فبدل العندية يتبنى الباحث الكونية التي تتيح التفاعل مع التطور المعرفي عند الآخر واستيراده بعد تمحيصه ونقده، وليس أخذه دون تدبره وتأمله وإدراك مساره التاريخي في إطار نسقي خدمة للتراث العربي كما هو الحال مع مشروع البلاغة العامة التي تروم خدمة التراث البلاغي العربي في إطار تفاعل حضاري لتصل به إلى الكونية، وهذا التفاعل ليس وليد العصر الحديث بل له أصل -حسب الباحث- عند كل من الأعلام المؤسسين للبلاغة العربية، ولهذا يعيب على المشتغلين بالبلاغة في إطار العندية التي تتحول إلى عنادية، أنهم "يبحثون عن "العربي" الأصيل، ويكرهون

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص: 64.
(2) نفسه، نفسها.

الفلاسفة العقلانيين، ولا يدرون أن كل من يحتفلون بهم من القدماء، مثل الجاحظ والجرجاني وحازم والسكاكي... الخ متشبعون بأفكار أرسطو وأفلاطون وحكمة الهند وتراتيب الفرس..."،[1] فالتفاعل إذن، لا مناص منه لتطوير الدرس البلاغي العربي، في إطار قراءة التراث العربي قراءة نسقية تلتزم بتصورات مشاريعه البلاغية الكبرى في إجاباتها عن أسئلة عصرها.

هذه القراءة التي تتجاوز حدود البنية المنغلقة للنصوص هي ما يميز قراءة العمري التاريخية، فكلمة التاريخية تتخطى حدود التصنيف والتّحْقِيب اللذين يسودان أغلب الدراسات البلاغية إلى ربط تلك الوقائع البلاغية بخلفياتها الموجهة لها في إطار قراءة الأنساق البلاغية وتفسيرها وتأويلها والبحث فيما بينها من علاقات. ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول بأن محمد العمري نبه إلى المسار غير القويم الذي تعيشه البلاغة العربية اليوم بتحكيمها مفهوما اختزاليا ساد مع السكاكي، يقول في هذا الصدد: "إن التصور السائد حاليا ومنذ قرون هو، تصور السكاكي، هو قراءة السكاكي للتراث القديم، وهي قراءة مشروعة ولكنها مشروطة بظروف. وقد صار السكاكي اليوم، ككل القدماء، جزءا من التراث البلاغي، فينبغي أن يدمج فيه قبل القيام بقراءة جديدة. ومن يومها سيُدرس (البيان، والمعاني، والبديع) كتصور لمدرسة لا كصورة كلية نهائية للبلاغة العربية".[2] إنه تأمل من مُؤرخ غير مُحَقِّب بل من مؤرخ ناقد للأسس التي تقوم عليها التصورات البلاغية القديمة، تأملٌ طويل جعله يعيد تعريف البلاغة وفق تصورها العام الذي

(1) نفسه، ص:64.

(2) العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:13.

كانت عليه قبل قراءة القزويني ومن تبعه من شراح كتاب مفتاح العلوم للسكاكي وملخصيه.

3 - مقولة الإبدال البلاغي:

ذكرنا سابقا أن قراءة العمري التراث البلاغي العربي تأسست على إبدالين مختلفين هما:

أ- الإبدال الأول: بلاغة الانتشار

يجسد هذا الإبدال الذي تتبناه البلاغة العامة مرحلة انتشار البلاغة العربية التي كانت تمتح من روافد عدة تغذيها وتضمن لها العيش،[1] إبدال يترأسه الجرجاني الذي صبَّت في يَمِّهِ تلك الروافد المعرفية المتنوعة، وانطلاقا من هذا التوسع في البحث البلاغي يُعرِّف محمد العمري البلاغة العامة بقوله: "البلاغة العامة عندنا، وحسب التصور العربي... هي العلم الذي يستوعب مجموع الاجتهادات التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب الاحتمالي المؤثر من زوايا عديدة: البديعيون ونقاد الشعر، والبيانيون وعلماء الخطابة، ومنظرو الإنشاء والكتابة، وقراء نظريتي الشعر والخطابة عند اليونان، من بداية التفكير البلاغي إلى القرنِ الخامسِ الهجريِ، بل حتى السابعِ منه، حيث كان حازم آخر المجتهدين (ت 684هـ/ 1285م)، وكان القزويني (ت 739هـ/ 1338م) أول المقلدين المكرسين للاختزال اعتمادا على المادة البلاغية التي انتقاها السكاكي (626هـ/ 1228م) باعتبارها مكونا من مكونات "علم الأدب" في كتابه: مفتاح العلوم".[2] إن إبدال الانتشار

(1) انظر القسم الأول من: العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.
(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:13.

أخذ من الجاحظ "اللفظ بمعنى التصوير، وأخذ من القاضي عبد الجبار معنى النظم وإشكالاته"،[1] ومنهما (بالإضافة إلى استعانته بمفهوم المحاكاة الذي استمده من الفارابي وابن سينا)، شكل الجرجاني بلاغته التي لونها بطابع النحو الموسع؛ فكانت بلاغة "بجناحين: اللفظ، بمعنى التصوير، والنظم، بمعنى ملاءمة التراكيب للمقاصد".[2]

نستخلص مما تقدم أن البلاغة العامة تجعل كل الإسهامات البلاغية، على الرغم من تنوع خلفيات المشتغلين بها، موضع درس ومساءلة للبحث في العناصر المشتركة لموضوع البحث البلاغي. ويبقى بعض الأسئلة بارزا بشكل كبير، من قبيل لم اهْتُمَّ بكتاب السكاكي على نطاق واسع على عكس التعامل مع كتاب حازم القرطاجني؟ ونجد لهذا السؤال جوابا لا يطبعه الحسم في قول محمد العمري: "لعل هذه المفارقة تجد تفسيرا في انكماش الفكر الفلسفي المركِّب وهيمنة التقنيات النحوية"،[3] ونجد له جوابا آخر في آخر كتابه البلاغة العربية يطبعه هذه المرة الحسم والجزم قائلا: "فكان أن لقي مشروع السكاكي قبولا لأنه كان قابلا للتجزيء. بسبب عدم انصهار أجزائه، في حين تعذر ذلك بالنسبة لمشروع حازم، كما تعذرت قراءته قراءة نسقية تركيبية في عصره أو بعده لخفاء الروابط بين أجزائه".[4]

وهذا التركيب الفلسفي الذي انتبه إليه الباحث في مشروع حازم هو جوهر مشروع البلاغة العامة للباحث، فلا تخفى تلك المعاناة التي تتجلى في

(1) نفسه، ص:16.
(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:16.
(3) العمري (محمد)، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:29.
(4) نفسه، ص:466.

بحثه عن منطقة تقاطع التخييل والتداول، كما تجلت في بحثه عن التركيب الذي يطبع الأنساق البلاغية، ومن ثم، يحق لنا أن نتساءل عن الجامع بين تصوري محمد العمري وحازم القرطاجني؟ لاسيما أنه يصرح بذلك قائلا في حديثه عن كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: "وانتهت العملية باستيعاب مادة "نقد الشعر" و"علم الخطابة" و"البيان" و"أدب الكتاب". في نسق بلاغي كلي على نحو ما اقترحه حازم؛ على أساس العمدة والتابع".[1]

تلك المهمة التي حاول إنجازها حازم القرطاجني الذي يبدو -حسب العمري- "كأنه يحس بأن البلاغات السابقة مجرد مداخل توصل إلى مركز واحد. ولكن عمله بدا مشوشا بسبب عدم تقديم تصور واضح ومتسع يدمج هذه البلاغات في بعضها".[2] هي المهمة نفسها التي انتدب لها العمري نفسه للقيام بها بعد تعايش كبير مع التراث البلاغي ورصد أنساقه البلاغية.

إن أهم ما يكمن استخلاصه من الإبدال المعرفي البلاغي الذي تبنته البلاغة العامة في قراءتها التراث البلاغي العربي، هو نزوعها نحو الكلي الذي يشمل التخييل والتداول مستفيدة من اجتهادات المشاريع البلاغية التي تنحو هذا النحو.

ب - الإبدال الثاني: بلاغة الانحسار

من الطريف أن يجعل الأستاذ محمد العمري اسم عبد القاهر الجرجاني الذي يترأس إبدال الانتشار في بداية قائمة المتعاقبين على مسلسل الاختزال،

(1) العمري (محمد): "من النقد الأدبي إلى البلاغة العامة"، ص:31.
(2) العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:493.

فعملية الاختزال -حسب الباحث- بدأت مع الجرجاني نفسه "ثم خطت خطوة واسعة مع السكاكي، وبلغت نهايتها مع القزويني وباقي الشراح والملخصين. ولا لوم على أحد منهم، فقد استجابوا جميعا لحاجيات عصرهم وأسئلته، واستثمروا إمكانياته".[1] بدأت مع الجرجاني "حين حاول بناء بلاغة تقصي الموازنات الصوتية رغم حضورها القوي في الشعر العربي الذي اتخذه متنا وشاهدا على الإعجاز"،[2] وقد وصف العمري هذا الاختزال عند الجرجاني بالاختزال المنهاجي راهن فيه الجرجاني على مَعْنَنَة الشكل La sémantisation de la forme فـ"إثبات "معنوية البلاغة" يبرهن، في نظره، على التحدي الإعجازي دون أن ينكر دور المكونات الأخرى غير المعنوية، أو غير الشكلية. فهو لا ينكر دور التجنيس والمضامين الفكرية والأخلاقية، ولكنه لا يعتبرها جوهرية. وهذا سائغ منهاجيا"،[3] لقد استمر مسلسل الاختزال مع السكاكي الذي كُتب لكتابه الذيوع؛ فـ" كان الخطباء من رجال الدين والسلطة في حاجة إلى بلاغة مقامية، منبرية ومجالسية، فوجدوا ضالتهم عند السكاكي، فاستحضروا من مفتاحه ما يهمهم... أما الشعر فقد كان على الهامش، شأنه شأن الفلسفة"،[4] وبعد ذلك جاء القزويني فحنّط البلاغة العربية "بفَصْلِ المواد البلاغية في كتاب المفتاح عن نسقها غير عابئ بأثر مقتضيات إستراتيجية السكاكي فيها. وقام بدوره بتلخيصها من مجموعة من التحليلات المنطقية التي أقحمها السكاكي.

(1) العمري (محمد): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:17.
(2) نفسه، نفسها. ولمزيد من التفصيل في هذه القضية انظر: العمري (محمد): الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، منشورات دار أفريقيا الشرق.
(3) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:17.
(4) نفسه، ص:19.

وكان الغرض من التلخيص في ذلك الوقت حفظ الملخص، وقد ينظم ليسهل حفظه، كما فعل أصحاب البديعيات."،[1] وقد تراجع بعد ذلك الإبدال الأول الممثل لبلاغة الانتشار لحساب الإبدال الثاني الممثل لبلاغة الانحسار والانكماش، فاستمر هذا الإبدال الثاني "واستمر معه تدريس الشروح والحواشي حتى ظهرت المدرسة الحديثة فتطوع مرشدون تربويون ومدرسون لتهذيب تلك الشروح باستخراج كتب مدرسية".[2] لقد أشار العمري في حديثه عن إبدال الانحسار إلى كيفية تدرج البلاغة العربية من الانتشار إلى الانحسار بين إبدالين مختلفين، ولكن الانتقال كان تدريجيا من خلال تنوع الأسئلة وفق كل عصر على حدة.

المطلب الثاني: ما البلاغة في مشروع الأستاذ محمد العمري؟

قد يكون من الأولى -باعتبار الجانب المنهجي- الإجابة عن هذا السؤال في الفصل الثاني من هذا البحث في إطار المنظومة المصطلحية للبلاغة العامة، لأن مفهوم البلاغة سيمثل حينها الجنس الأعلى في منظومة يتفرع عنه باقي المفاهيم، ولكن ضرورة تقديمه هنا تُستدعى من جانبين:

أولا: إن المنطلق في مشروع الأستاذ العمري، هو محاولة الإجابة عن سؤال محوري سبقت الإشارة إليه وهو: ما البلاغة؟ يشكل هذا السؤال خيطا ناظما لكل ما بناه الباحث في سبيل تأسيس هذا المشروع، وهذا الأمر

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص: 21.

(2) نفسه، نفسها.

ملحوظ بشكل كبير في كتبه المؤسِّسة،[1] وما دام هذا هو المنطلق فلا مناص من إدراجه في بداية بحثنا لتعرف هذا المفهوم.

ثانيا: إن استخراج الإجابة عن هذا السؤال من كتابات الباحث ستقودنا حتما إلى تعرف مشروعه "البلاغة العامة"، فما طرح هذا السؤال إلا تأسيسا لمشروعه البلاغي، ومن ثم يكون لزاما التعريف بالمشروع الذي يستدعي بلاغات خاصة لمعرفة الإطار الذي نخوض فيه.

1 - مفهوم البلاغة وتحولاته

البلاغة كسائر الحقول المعرفية خاضعة لسنة التطور، فالحياة غير ثابتة في لحظة زمنية واحدة، بل هي متجددة يصاحبها أسئلة معرفية في علاقة الإنسان بمجمل الحياة، والبلاغة لا يمكن استثناؤها من هذه السُّنة، ومن ثم، فالبحث عن تعريف واحد لها يشمل مسار تطورها هو بغية الأستاذ العمري ومراده، فتعريف البلاغة يحتاج إلى التعديل "كلما ظهر إبدال معرفي جديد"،[2] ولذلك فهي تختلف في الثقافة العربية مثلا، بين مفهومها عند الجاحظ وصولا إلى الصلاح الصفدي، ومرورا بمفهومها عند ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وغيرهم... كما أنها تختلف في مسارها الغربي الذي قطعته من أرسطو إلى بيرلمان وغيرهما، ولهذا فالراصد لنظرية البلاغة العامة "مطالب باستيعاب كل الرؤى، وفهم سر انتسابها إلى البلاغة؛ أي أنه مطالب بكشف الجوهر المشترك الكامن بين كل التوجهات

(1) انظر مثلا: المبحث الأول من الفصل الأول من كتاب البلاغة الجديدة، والمبحث الأول من الفصل الأول من كتاب أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، والمبحث الثاني من الفصل الثاني في القسم الأول من كتاب المحاضرة والمناظرة.

(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:65.

التي تحمل هذا الاسم، وليس من حقه أن يزكي أحدها أو يقصي الآخر إلا في إطار تحليل نقدي لبناء نسق جديد، أي حين ينتقل من التأريخ إلى التنظير"(1) يضاف إلى ذلك بينية الحقول المعرفية، إذ يصعب الحديث عن حدود مفصلة للحقول المعرفية خاصة في الحاضر، ولهذا فبدل الحديث عن هذه الحدود يجب البحث في مدى التداخل بين هذه الحقول، والبلاغة كذلك ليست بمعزل عن هذه الصفة، "فالبلاغة صارت اليوم منطقة مشتركة بين العلوم تصدر مفاهيمها إلى المجالات الأخرى، فأصبح لكل خطاب بلاغة: بل أكثر من ذلك أن لا علم يستطيع أن يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة للفهم والإفهام وأداة للتأثير والاستمالة"،(2) وهذه المهمة هي التي تمثل هاجس محمد العمري، فكان لأجلها كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" وكتاباه البلاغة الجديدة وأسئلة البلاغة اللذان يرجعاننا إلى السؤال الذي طرحناه في بداية حديثنا عن هذا المشروع البلاغي (البلاغة العامة) كله، وهو ما البلاغة؟

2 – تعريف البلاغة العامة

نلتقي بهذا السؤال في أغلب كتابات محمد العمري، منها كتابه "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" الذي يطرح فيه هذا السؤال منذ تقديمه له، يقول: "ها نحن نعود بعد عمر من البحث في المجال البلاغي ببعديه الشعري والخطابي، إلى نقطة البداية لنتساءل: ما هي البلاغة؟ أو، على الأقل: أين توجد البلاغة؟ هل هناك بلاغة واحدة، أم بلاغات متعددة؟ وإذا كانت هناك بلاغات متعددة، هل هناك: مشروعية لقيام بلاغة عامة تنتظم هذه

(1) نفسه، ص 66.
(2) نفسه، ص 70.

البلاغات الخاصة وتتحدث باسمها في نادي العلوم المحيطة بها؟"،[1] ثم يردف في آخر هذا التقديم بأن رحلة البحث عن مفهوم البلاغة سيكون في إطار المشروع الذي يتبناه، وهو مشروع البلاغة العامة، ولذلك فهو ينبه القارئ إلى مجموعة المصطلحات التي لا عهد له بها في ميدان البلاغة، وبخاصة البلاغة العربية، فأول ما ينبغي التنبه إليه هو معرفة المصطلحات ومدلولاتها في نسق هذا المشروع البلاغي المجدد. وهذا الأمر يلح مرة أخرى على التلازم الوثيق بين التأسيس للمشروع وبسط خريطته المصطلحية.

نبه العمري في محاولة بحثه هذه إلى الإشكال الذي يلف مفهوم البلاغة في السياقين العربي والغربي، مشيرا إلى أن هذا المفهوم لا يطرح إشكالا في السياق العربي في دلالته على علم الخطاب الاحتمالي بنوعيه التخييلي والتداولي، عكس السياق الغربي الذي يحيل فيه هذا المفهوم المقابل لـ rhétorique, rhetoric على ثلاثة مفاهيم كبرى:

1 - المفهوم الأرسطي: الذي يخصصها لمجال الإقناع وآلياته، وهذا المفهوم هو الذي أعاد بيرلمان وآخرون صياغته لبناء نموذج منطقي للإقناع.

2 - المفهوم الأدبي: بمعنى البحث في صور الأسلوب، وقد أعيدت صياغته بوصفه بلاغة عامة [أو معممة] كما هو الحال مع جماعة مي.[2]

3 - المفهوم النسقي: الذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى يشمل التخييل والحجاج معا.[3]

---

(1) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:5.

(2) تمييزا بين المصطلحات فالبلاغة العامة هي ما تجمع بين التخييل والتداول، أما البلاغة المعممة فهي التي تغلب جناحا من جناحي البلاغة في تعريفها.

(3) انظر المبحث الأول من الفصل الأول من كتاب: البلاغة الجديدة للعمري (محمد).

وقد جعل في مقابل هذه المفاهيم الغربية الثلاثة لمفهوم البلاغة ثلاثة تيارات في تاريخ البلاغة العربية، تتوزع بين:

1 - تيار صور البديع: الذي عُرف مع ابن المعتز (ت296هـ) في كتابه "البديع"، وأسامة بن منقذ (ت584هـ) في كتابه "البديع" كذلك، وابن أبي الإصبع (ت654هـ) في كتابه "تحرير التحبير"، وابن حجة الحموي (ت837هـ) في كتابه "خزانة الأدب"، ومع كل من السجلماسي وابن البناء المراكشي.

2 - التيار البياني الخطابي: ويمثله الجاحظ (ت255هـ) في كتابه "البيان والتبيين".

3 - تيار البلاغة العامة: الذي عُرف مع أبي هلال العسكري (ت395هـ) في كتابه "الصناعتين" ويمثله بشكل خاص حازم القرطاجني (ت684هـ) في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء". ومن هنا يبرز الاهتمام اللافت الذي يوليه العمري مشروع حازم القرطاجني.

وفي كتابه "أسئلة البلاغة" نجد السؤال نفسَه يُطرح منذ تقديم الكتاب كذلك، ويجعل الإجابة عنه محور اشتغال الكتاب كله، يقول: "هذا هو السؤال المحوري الذي يسعى هذا الكتاب للإجابة عنه بعد أربعين سنة من البحث في جوانبَ وقضايا مختلفة منه. قضايا كان بعضها معروفا على الإجمال (الصور البلاغية الشعرية)، وبعضها لفَّه النسيان (الأبعاد التداولية والحجاجية)".[1]

---

(1) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص:5.

إن الإجابة عن هذا السؤال المحوري في مشروع العمري جعلته يرصد مفهوم البلاغة وتحولاته سواء في الثقافة الغربية أو العربية، لينتقل بعد ذلك من تأريخه إلى التنظير له وفق تصوره لمشروع البلاغة العامة، ونعيد هنا القول بأن تلك الإجابات كلها نجدها متضمنة في كتابه المحاضرة والمناظرة، وإن كان يطبعها الإيجاز غالبا مقارنة بالإجابات التي تضمنتها الكتب الأخرى، وخصوصا كتابيه البلاغة الجديدة وأسئلة البلاغة المذكورين آنفا.

بالاطلاع على كتاب المحاضرة والمناظرة نجد أن الباحث قبل أن يطرح تعريف البلاغة، ميز فيها بين معنيين، المعنى الأول يحيل على الكفاءة التعبيرية، أي كل ما يتعلق بالإعجاب من حسن الكلام، أما المعنى الثاني فمرتبط بوصفها علما يصف هذه الكفاءة التعبيرية، وبعدها يخلص إلى التعريف الآتي: "البلاغة هي علم الخطاب المُؤَثِّر القائم على الاحتمال".[1] ونسجل ملاحظة مفادها أن الأستاذ العمري لا يفتأ يعيد تعريف البلاغة، وهذه الإعادة تمثل رغبته في تأكيد معناها في نفوس المتلقين سواء المنتسبين إليها والمشتغلين بها أو المناوئين لها، لقد أعاد تعريف البلاغة كالآتي: هي "العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثر تخييلا أو تداولا، أو هما معا".[2] ونلتقي مع التعريف نفسه في موضع آخر، ولكنه يتسم بالتفصيل، يقول فيه:

"1 - البلاغة إنشاءً، هي: الخطاب الاحتمالي المؤثر، المنجز عن طريق الاختيار مناسبة أو إغرابا، لغرض خلق فسحة في ذهن الإنسان (تخيل)، وفسحة بينه وبين الآخرين (تداول) إفرادا وتركيبا (تخييل وتداول). والمنشئ بليغ، والبلاغة درجات.

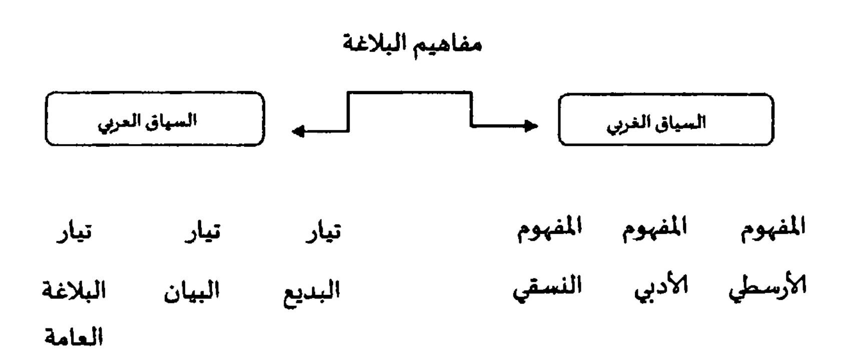
(1) نفسه، ص: 71.
(2) نفسه، ص: 77.

2 - البلاغة وصفا: العلم الذي يتناول الإنشاء حسب القواعد المعرفية".[1]

فإنتاج الخطاب الاحتمالي المؤثر تخييلا أو تداولا يجعلنا حسب التعريف أمام المعنى الإنشائي والتعبيري للبلاغة، أما وصف هذا الخطاب فينتقل بنا إلى معناها الوصفي والعلمي.

3 - التخييل والتداول

لا يمكن الحديث عن منطقة التقاطع بين التخييل والتداول إلا باستحضار التقسيمات الثلاثة السابقة لمفهوم البلاغة سواء في الثقافة العربية أو الثقافة الغربية، فإذا قال العمري: إن "المنطقة التي يتقاطع فيها التخييل والتداول، وهي منطقة الاحتمال"،[2] فإن دلالة ذلك أنه يتصور البلاغة بمفهومها الثالث، لأن المفهومين الأولين يشكل كل منهما جناحا من جناحي البلاغة العامة، ولنتخذ الترسيمة الآتية توضيحا لذلك:



(1) نفسه، ص: 89.
(2) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:6.

يشير العمري إلى أن دارسي هذه القضية لا يختلفون في كونهم يؤمنون بتقاطع التخييل والتداول في منطقة الاحتمال، يقول: "ومع ذلك فمن الدارسين من رجح الخصوصيات النوعية لكل جنس ففصل، ومنهم من رأى أن منطقة الاتصال واسعة بشكل يجعلها كافية لقيام علم عام للشعرية والخطابية هو علم البلاغة"،[1] فالأمر هنا يتعلق بالتغليب بين الخصوصيات مما يجعل أمر التقاطع ضيقا وبين إمكان الدمج مع الاحتفاظ بطابع الخصوصية الجنسية للخطابات. ويذكر ممن يتبنون الفصل بين الشعرية والخطابية بول ريكور، وممن يتبنون الوصل بينهما أي اتجاه البلاغة العامة ميشيل مايير وأوليفيي روبول، أما في السياق العربي فإنه يشيد بهذا التداخل بين الخطابين الشعري والخطابي إلى حد القول بأن "الخطابة العربية القديمة مثلا خطابة شعرية".[2] ومن ثم فهو يتبنى موقف الوصل بين الشعري والخطابي أي بين التخييلي والتداولي، أما حديثه عنهما منفصلين فما هو إلا إجراء منهاجي تقتضيه أدبيات البحث العلمي.

(1) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:15.
(2) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص:19.

المبحث الثالث

التصور الإبستمولوجي لبلاغة الجمهور

نقصد من وراء هذا العنوان الكبير، أولا: رصد الأسس التي تقوم عليها بلاغة الجمهور في تأسيسها منطقة بحثية مهمشة في تاريخ الفكر البلاغي العربي بل الكوني، وذلك من خلال تتبع نظرة الباحث عماد عبد اللطيف إلى التراث البلاغي العربي. وثانيا: استئناف الحديث عن التصور الإبستمولوجي بعد انضمام مجموعة من الباحثين وتسخير أقلامهم للإسهام في تطوير هذا الحقل المعرفي الجديد.

المطلب الأول: قراءة التراث البلاغي والتأسيس لـ"بلاغة الجمهور"

1 - تصنيف البلاغة العربية

استدعى تأسيس مشروع بلاغة الجمهور توجيه النظرة إلى التراث البلاغي العربي وإعادة قراءته؛ وهذا ما أنجزه عماد عبد اللطيف، فقد أعاد تصنيف البلاغة العربية إلى ثلاث بلاغات مقترحا بلاغة رابعة سماها بلاغة الجمهور، فما أسس هذا التصنيف؟ وما الداعي إلى اقتراحه بلاغة رابعة؟

سنستخدم مقولة الإبدال المعرفي في توضيح رؤية عماد عبد اللطيف

للتراث البلاغي العربي، وليس في استخدام هذه المقولة تعسف وتمحّل؛ فقد أشار الباحث نفسُه في دراسة له إلى هذا الأمر قائلا: "واقترحت توجها رابعا للدرس البلاغي يقترح تغييرا جذريا في **النموذج الإرشادي** للبلاغة العربية"،[1] كما أشار إلى ذلك مجددا في موضع آخر قائلا: "ومن المأمول أن يأخذ هذا التوجه نحو التركيز على خطابات الحياة اليومية ونصوصها في تغيير **النموذج الإرشادي** للبلاغة العربية".[2] ومن ثم يسهل الإجابة عن السؤالين السابقين.

لقد تكونت رؤية الباحث حول التراث البلاغي من خلال ثنائية (متكلم/ مخاطب)، ثم فَحْصِ العلاقة بينهما وما يحتله كل منهما من مكانة في الفكر البلاغي العربي، ولا بد من وقفة نرصد فيها المرحلة الأولى لبناء مشروعه حتى تتوضح معالمه بشكل جلي.

أعاد عبد اللطيف تصنيف البلاغة العربية تطويرا للدرس البلاغي تماشيا مع توجهه الجديد القائم على توجيه مركز الاهتمام في البلاغة من المتكلم إلى المخاطب، ولذلك تُعَدُّ هذه الفكرة هي المنطلق الأول لتأسيس مشروعه البلاغي، ومن ثم، كان عليه بداية الدفاع عن أطروحته بنفي الأطروحة القائمة على أن مركز الاهتمام في البلاغة العربية هو المخاطب، يقول في هذا الصدد: "ركزت على تفنيد الدعوى القائلة بأن البلاغة [العربية] القديمة احتفت بالمخاطب؛ مبرهنا أن الاهتمام بالمخاطَب في البلاغة العربية القديمة يستهدف تحقيق غاية المتكلم في إنجاز أقصى تأثير لكلامه أو نصه... وقد

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:34. [التشديد من عندنا]

(2) نفسه، ص:251. [التشديد من عندنا]

كان هذا الإدراك لانشغال البلاغة القديمة بتحقيق أغراض المخاطِبين، والنظر إلى المخاطَبين على أنهم فرائس للقنص، ومرمى للتصويب، هو حافزي الأساسي إلى اقتراح توجه بلاغة الجمهور"،[1] وبذلك نكون قد وقفنا عند الإجابة عن السؤال الثاني، ففي هذا النص يحدد الباحث سبب اقتراحه مشروع "بلاغة الجمهور" في كون أن البلاغة كانت دائما بلاغة متكلم وليست بلاغة مخاطب، ولم يقتصر الباحث على توضيح هذه الفكرة في تاريخ البلاغة العربية فقط، بل رصدها في توجهات البلاغة الغربية وبعض الدراسات الحديثة التي تهتم بالجمهور، ولنا عودة لاحقا إلى هذه القضية مع مفهوم الجمهور. فكيف توصل الباحث إلى هذا الحكم؟

يُعَدُّ المقال التأسيسي لعماد عبد اللطيف، سنة 2005م، المرجع الأساس لهذا التوجه البلاغي الجديد، فقد تضمن الأسس النظرية والمنهجية لبلاغة الجمهور، ولذلك سيكون مرجعنا في تحديد نظرة بلاغة الجمهور إلى التراث البلاغي العربي. لقد أعاد الباحث تصنيف البلاغة العربية على أساس ثلاثة عناصر ثابتة، هي: المادة والموضوع والوظيفة، ليخلص إلى أن مسار الفكر البلاغي العربي تقاسَمْتُه ثلاثة إبدالات معرفية، مثلتها ثلاث بلاغات هي: البلاغة القرآنية، والبلاغة الأدبية، والبلاغة الإنشائية، وتوضيحا للأمر بشكل منهجي، نعيد تشكيل فقرتين من فقرات[2] مقاله التأسيسي في هذا الجدول:

(1) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:160.
(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص: 10-11.

مقترح عماد عبد اللطيف في تصنيف البلاغة العربية مع توجهه الجديد			
معايير التصنيف / أنواع البلاغات	المادة	الموضوع	الوظيفة
1 - البلاغة القرآنية	القرآن الكريم	الأبعاد البلاغية للقرآن الكريم	التعليل لإعجازه البلاغي والمشاركة في تفسيره
2- البلاغة الأدبية	النصوص الأدبية شعرا ونثرا	الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية	استخلاص الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية وتحليلها
3- البلاغة الإنشائية	اللغة المستخدمة في الحياة اليومية لتحقيق التأثير و/ أو الإقناع	إنتاج الكلام البليغ	وضع معايير للكلام البليغ، ووضع إرشادات تمكن البليغ من إنتاجه
4 - بلاغة الجمهور (التوجه المعرفي الذي اقترحه الباحث عماد عبد اللطيف)	الخطابات البلاغية الجماهيرية	دراسة الكيفية التي تستخدم بها هذه الخطابات اللغة لتحقيق الإقناع والتأثير وأثر ذلك في تشكيل استجابة المخاطب وإمكانيات تعديلها وتكييفها وصولا إلى تحقيق اتصال حر	تقديم معارف وأدوات للمخاطب تمكنه من مقاومة الخطابات البلاغية السلطوية

إن هذا التصنيف يرسم بشكل مجمل الأرض البلاغية التي تقترحها بلاغة الجمهور على أرض البلاغة الكونية، انطلاقا من البلاغة العربية فـ"غاية تأسيس حقل معرفي لدراسة استجابات الجمهور من منظور بلاغي هي استكشاف إمكانية تأسيس هوية جديدة للبحث البلاغي، ليس العربي فحسب بل الكوني أيضا. هذه الهوية التي تقوم على خصوصية المادة المدروسة، والوظيفة، والسؤال المعرفي؛ لا تمثل هوية إقصائية لكينونة البلاغة التقليدية، بل هي هوية إضافية"،[1] ولذلك يلزم توضيح معايير التصنيف المتعلقة ببلاغة الجمهور توضيحا يربط بين الإجابات التي يقدمها الباحث في مختلف كتاباته في إطار نسقي لمشروعه:

2 – أسس التصنيف

أ – مادة بلاغة الجمهور

نلاحظ أن الباحثَ في تأسيس مشروعه البلاغي، لا يتكلم إلا عن البلاغة الإنشائية، ليبني في مواجهتها بلاغة المخاطب التي سماها فيما بعد بلاغة الجمهور،[2] وذلك متعلق بشكل كبير بالمادة التي تشتغل بها تلك البلاغة، فالمادة البلاغية للبلاغة الإنشائية هي اللغة المستخدمة في الحياة اليومية بغية التأثير والإقناع، أما مادتا بلاغتي القرآن والأدب فهما على التوالي النصوص المتعالية التي تضم القرآن وكلام الرسول والنصوص العليا التي تضم الأدب من شعر ونثر؛ ولذلك فبناء بلاغة الجمهور كان قائما بشكل أولي على انتقاد مادة البلاغة الإنشائية ثم انتقاد موضوعها

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:27.
(2) سنفصل في أسباب الانتقال من مصطلح المخاطب إلى الجمهور في الفصل المخصص للمفاهيم.

ووظيفتها، لأن مادتي البلاغتين الأوليين لا تستدعيان التجديد فيهما؛ فهما تشكلان مكونا من مكونات الثقافة العربية والإسلامية، وكانت بلاغتاهما إجابة عن أسئلة محددة كما سبق تعرف ذلك في الجدول، عكس البلاغة الثالثة التي وإن كانت تجيب هي الأخرى عن أسئلة عصرها فهي لا زالت مستمرة إلى عصرنا الذي يحتاج إلى من يجيب عن أسئلته العالقة.

إن مادة البلاغة الإنشائية بقيت مستمرة إلى أيامنا هذه؛ فتلك البلاغة كانت تجيب عن أسئلة عصرها المتمثلة في البحث بشكل كبير عن بلاغة منبرية مجالسية مع الخطيب القزويني المتكئ على القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، وهو ما جعل الهوة تتسع بين البلاغة وخطابات الحياة اليومية، فـ"انفصال الدراسات اللغوية والبلاغية الأكاديمية، في أقسام اللغة العربية خاصة، عن الواقع المعاش، وانحسار اهتمامها في اللغة العربية الكلاسيكية وبلاغتها، وافتقاد مناخ الحرية الأكاديمية"،[1] كان دافعا وراء نشوء بلاغة الجمهور. غير أن اللغة التي تهتم بها البلاغة الإنشائية هي لغة منتج الخطاب أي المتكلم، ولذلك يطلق عليها الباحث اسم بلاغة المتكلم، وفي مقابل بلاغة المتكلم يوجه تركيزه إلى دراسة الخطابات التي ينتجها المخاطب، وهي خطابات جماهيرية تنتج في أفضية عمومية. وهذا البعد المغيّب في البلاغة العربية وغيرها، أي دراسة الخطابات التي ينتجها الجمهور هو ما يفسر غياب دراسات تهتم بخطابات يدعو إلى دراستها الباحث في إطار توجهه الجديد، من قبيل: "خطب الدعاة الجدد والمناظرات السياسية والملصقات الدعائية في الشوارع، وخطب المسئولين السياسيين، وإعلانات

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:9.

الصحف والإذاعة والتلفزيون، ونداءات الباعة الجائلين، والمحاورات في المجالس النيابية، والسجالات اللفظية على جدران الشوارع ومدرجات الدراسة وأبواب دورات المياه العمومية، والمواقع المؤسساتية والشخصية على الشبكة الدولية للمعلومات".[1] ومن ثم، فأول تجديد البلاغة وتطويرها هو الاهتمام بخطابات الحياة اليومية. ومن هنا تأتي الإشارة إلى حاجة البلاغة العربية إلى إبدال معرفي جديد "يتجاوز مشكلات التوجهات القائمة والمتمثلة بشكل أساسي في عدم اكتراثها بالخطابات البلاغية في الحياة اليومية أو تحولها إلى ممارسة سلطوية تعزز من سيطرة المتكلم وهيمنته على المخاطب"،[2] كما أن هذه المادة البلاغية المقترحة للدراسة تنفتح على ما تتيحه وسائط جديدة لم تكن قديما، من ذلك شبكات التواصل الاجتماعي، أو ما يمكن أن نجمله في الثورة الرقمية، وقد توضحت مهمة بلاغة الجمهور في دراسة خطابات الربيع العربي التي أنتجتها جماهير في ساحات عمومية أو في أفضية افتراضية، وهي بهذا الصنيع، "قد تبنت الدعوة إلى الاهتمام الأكاديمي بخطابات الجماهير، وسعت -قبل الربيع العربي- إلى توجيه اهتمام الأكاديميين العرب، وبخاصة دارسي البلاغة، نحو خطابات الحياة اليومية التي ينتجها الجمهور في الفضاءات العمومية. وقدمت نماذج تحليلية لدراسة هذه الخطابات"،[3] ومن هذه النماذج نذكر ما يتعلق بالعلامات غير اللغوية كتاب "لماذا يصفق المصريون؟"(2009)، وما يتعلق بالعلامات اللغوية وغير اللغوية كتاب "بلاغة الحرية" (2013).

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:8.
(2) نفسه، ص:16.
(3) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي ملاحظات منهجية"، ص:14.

لقد جسّدت خطابات الربيع العربي دور المحامي في الدفاع عن انتقاد وُجّه لبلاغة الجمهور، يتهمها بأنها تعطي خطاباتِ الحياة اليومية أهميةً لا تستحقها.

ويمكن رصد الإضافات التي قدمتها بلاغة الجمهور للبلاغة العربية عموما في طرحها مادة جديدة للدرس البلاغي وهي تلك الاستجابات التي ينتجها الجمهور في أفضية عمومية، بعد عصور من الاهتمام بالنصوص الدينية أو النصوص التي تنتجها طبقة النخبة، فعلماء البلاغة العربية -كما يقول عماد عبد اللطيف- لم يغامروا " بتعريض علمهم للتدنيس بدراسة كلام الغوغاء والعامة ونصوصهم. ولم يُعْنَ الدرسُ البلاغي بخطابات الحياة اليومية، ونصوصها"[1].

ينطوي كلام الباحث على إشارات إلى النظرة السلبية التي لازمت "الجمهور" سواء في البلاغة العربية أو البلاغة الغربية -كما سيأتي لاحقا-، كما أنه يشير إلى وظيفة بلاغة الجمهور المتمثلة في إمداد هذا "الجمهور" بعدة تربوية (بيداغوجية) تحقيقا للمهمة التي تنتظره أمام الخطابات السلطوية.

بعد توفير مادة الاشتغال ينتقل الباحث إلى تحديد الأسئلة المعرفية التي تتعلق بدراستها، وهو ما يأخذنا إلى الحديث عن موضوع بلاغة الجمهور.

ب - موضوع بلاغة الجمهور

قد تشترك حقول معرفية أخرى في دراسة الجمهور، كدراسات التواصل والإعلام، ودراسات علمي النفس والاجتماع وغيرهما، لكن موضوع

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:19.

بلاغة الجمهور يختلف عنها، لكونه يفرد مساحة خاصة به تتعلق بدارسة استجابات الجماهير، ولعل موضوع هذا التوجه الجديد يحدد بشكل كبير المفاهيم الثلاثة الكبرى المؤسسة له، وهي الجمهور، والسلطة، والاستجابة. فبعد تحديد مادة الاشتغال في استجابات الجماهير، تأتي مهمة البحث في العلاقة بين هذه الاستجابات وخطاب المتكلم، وما تنطوي عليه تلك العلاقة من سلطة، في إطار بغية المتكلم تحقيق التأثير والإقناع في الجمهور، فـ"هذا التأثير والإقناع كثيرا ما يكونان أداة للسيطرة على المخاطب. ولما كانت السلطة تحدد بمعيار السيطرة والتحكم (فان ديك 2001)؛ فإنه يمكن القول، أولا: إن بعض ممارسات البلاغة الإنشائية هي أداة تدعم سلطوية المتكلم، وتمكنه من إنجاز السيطرة والهيمنة على المخاطب"،[1] ومن ثم فبلاغة الجمهور تتخذ "من طبيعة الاستجابات البلاغية الفعلية والمحتملة للمخاطب الذي يتلقى خطابا بلاغيا عاما موضوعا لدراستها".[2] وكلمة المحتملة في هذا السياق لها دلالات متعددة مرتبطة أساسا بطبيعة الخطابات التي تدرسها هذه البلاغة، وهي خطابات تنتمي إلى دائرة الاحتمال، والاحتمال يُفَّعل بالاختيار، والاختيار هو مطمح هذه البلاغة المتمثل في ترشيد هذه الاستجابات، حين يصبح الجمهور قادرا على اختيار الاستجابات الملائمة في مقامه الخطابي لتقويض سلطوية الخطابات التي تسعى إلى السيطرة عليه، وفي هذا الإطار تبرز وظيفة بلاغة الجمهور.

كما أن دراسة الاستجابات في هذا التوجه البلاغي الجديد، لا تقتصر على الجانب اللغوي، بل تربطه بالجانب غير اللغوي أي السميائي. لكن

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:14.
(2) نفسه، ص:23.

أهم ما يبرز خصوصية بلاغة الجمهور في تحديد موضوعها، هو بلورتها سؤالا جديدا "يخص العلاقة بين الخطاب والأداء من ناحية، والاستجابة من ناحية أخرى. وهو سؤال لم يطرح من قبل في إطار الدرس البلاغي على نحو دقيق".[1] كما يقول صاحب المشروع.

يدخل البحث عن العلاقة بين الخطاب والأداء والاستجابة في الاهتمام الثاني لبلاغة الجمهور، وهو اهتمام أكاديمي، بعد الاهتمام الأول وهو بيداغوجي، كما سيتبين بعد قليل.

ولهذا التحديد في بلورة السؤال السابق مرجعية تعود إلى اعتماد الباحث على التحليل النقدي للخطاب،[2] وبخاصة مع نورمان فيركلوف fairclough؛ فقد انطلق الباحث من الوعي بغياب بعد رابع يخص العلاقة بين الخطاب واستجابات الجمهور في الإطار التحليلي لفيركلوف المتكون من ثلاثة أبعاد، هي تحليل النص، وتحليل الممارسات الخطابية، وتحليل الممارسات الاجتماعية.[3]

إن دراسة استجابات الجماهير تدفع إلى طرح السؤال الآتي: لماذا تدرس بلاغة الجمهور استجابات الجماهير؟

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:26.

(2) تعتمد بلاغة الجمهور عدة روافد معرفية أهمها المقاربات الآتية: التحليل النقدي للخطاب، والبلاغة الناقدة، والبلاغة العربية، ودراسات الإعلام، والقارئ النشيط، لمزيد من التفصيل انظر: بكار (سعيد): "في مفهوم بلاغة الجمهور"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. وانظر كذلك: عبد اللطيف (عماد): "من الوعي إلى الفعل مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي"، مقال منشور ضمن أعمال ندوة "علاقات الخطاب بالسلطة" قسم اللغة الفرنسية، جامعة القاهرة، أكتوبر 2006.

(3) عبد اللطيف (عماد):"تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية"، ص: 512-513.

ج - وظيفة بلاغة الجمهور

ترتبط الإجابة عن السؤال السابق بتوضيح وظيفة بلاغة الجمهور، فسواء تحديد المادة البحثية أو تحديد موضوع الدراسة وأسئلتها المحركة لها، لا يكفيان لقيام مشروع بلاغي جديد ما لم يحركه سؤال جوهري أساسي، ودراسة بعنوان "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟" للباحث بعد مضي حوالي ثلاثة عشر عاما على تأسيس المشروع، توضح مدى دفاعه عن مشروعية قيام هذا الحقل البلاغي الجديد انطلاقا من التركيز على وظيفته، يقول صاحب المشروع: "قد لا تُسوّغ خصوصية المادة بمفردها نشأة حقل معرفي جديد؛ إذ لا بد أن يستقل هذا الحقل أيضا بوظيفة مميزة، وأسئلة معرفية خاصة. وقد سعت بلاغة الجمهور منذ تدشينها إلى بلورة وظيفة مغايرة لعلم البلاغة، تعد من أهم ما تسعى إلى تقديمه"؛[1] فما وظيفة بلاغة الجمهور؟

تتشكل وظيفة بلاغة الجمهور أساسا حين انتقالها من مركز اهتمام البلاغة العربية والغربية وهو المتكلم إلى الجمهور، ليبدأ الرهان على هذا الطرف الذي تراه الأضعف في العملية التواصلية، وهي نظرة إيجابية ونبيلة أخلاقيا تجاهه.

إن وظيفة بلاغة الجمهور مرتبطة بفعل أخلاقي نبيل لا يمكن غض الطرف عنه، فهو يحدد هذه الوظيفة انطلاقا من الرهان الذي تعلقه على "الجمهور" من خلال الاستجابات التي ينتجها في مواجهة الخطابات السلطوية التي يبتغي بها المتكلم السيطرة والهيمنة عليه، ومن ثم حدد

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:25.

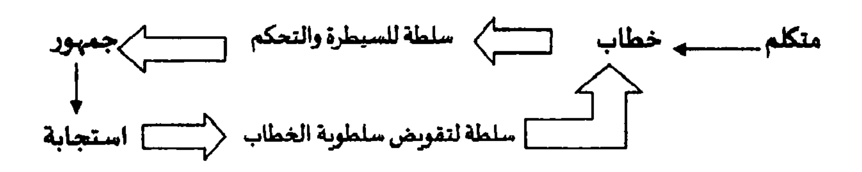
صاحب المشروع بعدا تربويا (بيداغوجيا) لهذه البلاغة هدفه إمداد الجمهور بعدة تمكنه من مقاومة سلطة خطاب المتكلم وتقويضها، في مقابل ما تمد به البلاغة الإنشائية المتكلم من أدوات لتحقيق التأثير والإقناع في الجمهور، وهذا الرهان قائم على أن "الاستجابات الآنية للمخاطب والمتمثلة في رد الفعل والتغذية الرجعية.. إلخ تؤثر في الطريقة التي يَبْني المتكلم بها نصه ومجمل خطابه".[1]

عاد عماد عبد اللطيف إلى التراث البلاغي العربي ضمن ما سماه البلاغة الإنشائية أي بلاغة المتكلم، واستثنى من ذلك التراث أساليب بلاغية عُنيت بالمخاطب فأدخلها ضمن قاعدة بيداغوجية لبلاغة الجمهور هي الاستجابات البليغة، وقد حصر تلك الأساليب في: أسلوب الحكيم، والأجوبة المفحمة، والقول بالموجب، ومجاراة الخصم، وأسلوب السؤال والجواب،[2] أما ما عدا ذلك فيدخله كله في خانة الأدوات التي تعين المتكلم على تحقيق هيمنته وسيطرته على الجمهور. وتتوضح هذه النظرة الإيجابية تجاه الجمهور في قول صاحب المشروع: "تسعى بلاغة الجمهور إلى تشكيل وعي مضاد بالتلاعب البلاغي، وتمكين الأفراد العاديين من مقاومته بواسطة استجابات رشيدة، أطلقت عليها من قبل تسمية "الاستجابات البلاغية"".[3] وقبل أن نختم قولنا هنا، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الوظيفة التي تلتزم بها بلاغة الجمهور، ليست مرتبطة بالبلاغة العربية بل تسعى إلى جعلها ضمن البلاغة الكونية؛ لأن البلاغة في نظر عبد اللطيف

(1) عبد اللطيف (عماد):"بلاغة المخاطبْ"، ص17-18.
(2) عبد اللطيف (عماد):"ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص: 18-25.
(3) نفسه، ص:25.

كانت دائما في خدمة المتكلم فقط، وأن الاهتمام بالمخاطب لَمَّا يَكُنْ إلا من زاوية مدى تحقيق التأثير والإقناع فيه، وبذلك، فوظيفة بلاغة الجمهور ضمن وظيفة البلاغة الكونية هي أن "ما تحاول بلاغة الجمهور إحداثه هو استعادة البلاغة بوصفها معرفة ومهارة ذات وظيفة مجتمعية رشيدة".(1) وهذا المسعى التجديدي مرتبط بالانفتاح على المنجز الغربي كما سبقت الإشارة إلى ذلك في أكثر في مناسبة من هذا البحث.

يمكن تمثل العناصر الثلاثة السابقة لبلاغة الجمهور من خلال ما يأتي:



المطلب الثاني: التمهيد لبناء تصور إبستمولوجي لبلاغة الجمهور

وقفنا في المطلب السابق عند الأسس التي اعتمدها عماد عبد اللطيف في تأسيس مشروعه البلاغي، ولأن ظهور مثل هذه المشاريع مرتبط بالاكتشافات فإن اكتشاف الباحث غياب بعد رابع في المقاربة التحليلية لنورمان فيركلوف

(1) نفسه، نفسها.

هو ما جعله يوسع منطقة اكتشافه لتصبح مشروعا بعد البحث له عن مظلة فلسفية ترشد منطلقاته وتصوغ مفاهيم قادرة على استيعاب التصور الإبستمولوجي الذي يمثله المشروع، كما أن ظهوره ارتبط بتوسيع دائرة البحث في أسئلة لم يهتم بها الإبدال القائم، تلك الأسئلة هي التي وضحناها في المطلب السابق، ويبقى أهمها علاقة البلاغة بالسلطة في إطار العملية التواصلية وما تضمه من أطراف متفاعلة بالتركيز على الجمهور.

1 - إرهاصات إبستمولوجية

يبقى الرهان على إقامة تصور إبستمولوجي لبلاغة الجمهور قائما حتى تتمكن من فرض مكانتها داخل حقل العلوم الإنسانية، ويحتاج البحث في هذا الجانب المهم والأساس بالإضافة إلى الوقت الذي يأخذه، عددا من الباحثين ليقيموا هذا الصرح فلا يتحقق إلا ببذل جهد كبير فيه حتى تكون النتائج في مستوى طموح هذه البلاغة المقاومة، يشترك في إقامته عدد من الباحثين ذوي تخصصات مختلفة من فلسفة، وعلمي النفس والاجتماع، وغيرها...

لقد حاول عماد عبد اللطيف تقديم تصور إبستمولوجي لبلاغة الجمهور، ولكنه يبقى محاولة تقدم القصب لمن يريد المشاركة، فالبحث في هذا الجانب يحتاج عملا جماعيا في إطار موحد. وتبقى أهم الإشارات الإبستمولوجية التي قدمها الباحث هي أن كثرة البحوث في هذه البلاغة من شأنه أن "يؤدي إلى بلورة منهج خاص في تحليل استجابات الجماهير"،[1] ولبلورة هذا المنهج يُحتاج إلى أدوات عمله أهمها المفاهيم والمصطلحات التي ما تزال

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:29.

تشكلها من خلال مجابهتها مجموعة من الخطابات المتنوعة، قد أوكلت مهمة التجريب للباحثين الوافدين على "جزيرتها البحثية" لتبقى المهمة الرئيسة متمثلة في تحقيق وحدة الرؤية لتشكيل أدوات قادرة على تحليل أي خطاب في ضوء استجابات الجماهير. ويضيف صاحب المشروع أن هذه البلاغة ليست منظورا معرفيا perspective ولَمَّا تتحولْ إلى مدرسة بلاغية في منطقة بحثها الخاصة. فما يمكن الجزم به إلى حدود الآن هو أنها حقل معرفي يختص باستجابات الجماهير، كما يمكن قبولها على أساس أنها مستوى من مستويات التحليل البلاغي يهتم طبعا بدراسة استجابات الجماهير وكيفية ترشيدها، و"وفقا لهذا التصور، فإن بلاغة الجمهور يمكن أن تندمج في الممارسات التقليدية للتحليل البلاغي، بوصفها مستوى من مستويات التحليل".[1] وسنعالج هذه القضية في إطار حوار نجريه بين مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور، أي بين العام والخاص.

2 - الإطار الفلسفي لبلاغة الجمهور

لقد سعى صاحب المشروع منذ بداية مشوار البحث في هذا التوجه البلاغي إلى البحث عما يحوي مشروعه من الجانب الفلسفي بما يضمن له رسوخه وإمكان مساءلته بشكل أكاديمي، لذلك مَوْقَعَ مشروعه ضمن فلسفة يورغن هبرماس وتحديدا ضمن الاهتمام الثالث الذي يقصد العلوم النقدية،[2] حين أشار إلى أن هابرماس حدد ثلاثة اهتمامات معرفية مشتركة لدى البشر، هي:

(1) نفسه، ص:32.

(2) انظر الملاحظة التي قدمها الباحث في هذا الصدد في مقاله التأسيسي نقلا عن مارشال 2001: "بلاغة المخاطب"، ص:32.

الاهتمام الأول: تقني فني	الاهتمام الثاني: عملي	الاهتمام الثالث: تحرري
يتجلى في معرفة البيئة المحيطة وفي السيطرة عليها والتحكم فيها. وقد أدى هذا الاهتمام إلى قيام العلوم الطبيعية.	يتمثل في قدرة كل منا على فهم الآخرين، وعلى العمل المشترك والتعاون في مناشط الحياة. وهذا هو الاهتمام المسؤول عن قيام العلوم التأويلية.	ينطوي على الرغبة في تخليص أنفسنا من كل ما يعمل على تشويه عمليات الاتصال والفهم. وهو الاهتمام المسؤول عن قيام العلوم النقدية.

وللإشارة فإن هابرماس ينتمي إلى ما يعرف بـ"النظرية النقدية" التي ارتبط تأسيسها بمدرسة فرانكفورت الألمانية، وهي نظرية اجتماعية ذات أسس ماركسية، و"تتبدى الخطوط العريضة للنظرية النقدية بأنها مشروع يسعى إلى دفع قضية التحرر والانعتاق من خلال ما تراه جهدا نظريا موجها ضد الهيمنة التي أشاعتها مرحلة التنوير واستمرت مع كانط"،[1] وفي هذا التحديد يتجلى التوافق مع الفلسفة التي تضعها بلاغة الجمهور لمسارها في نشر الوعي بين الجماهير لممارسة التحرر والانعتاق عبر نقد الخطابات السلطوية وكشف ما تنطوي عليه من تلاعبات وتضليلات وتزييف وعيها. ويمكن تلخيص أساس هذه النظرية النقدية في أنها تسعى "إلى مناهضة تشكلات القوى التي تؤسس الهيمنة وتعممها مظهرة محدوديتها وقصورها وتعسفها".[2] ولا بد لهذه التواشجات بين النظرية النقدية وبلاغة الجمهور

(1) البازعي (سعد) و الرويلي (ميجان): دليل الناقد الأدبي، ص:299.
(2) نفسه، ص:300.

من دراسة مفصلة، فلا نلتقي في الكتابات التي تهم بلاغة الجمهور في هذا الجانب إلا مع إشارات لا تفصل في الأمر تفصيلا لتبيان تلك العلائق.

أما فيما يخص الروافد المعرفية لبلاغة الجمهور، فقد أشرنا إليها سابقا، بما يرتبط ببينية الحقل البلاغي في هذا المشروع التي جعلته ينفتح على حقول معرفية ذات اهتمامات مشتركة والاستفادة منها كالتحليل النقدي للخطاب، والبلاغة النقدية، والعلوم الإنسانية، وعلوم الاتصال، والسميوطيقا، وتحليل الخطاب، وغيرها، إضافة إلى البلاغة العربية الإنشائية.

3 - اقتراحات لتطوير الأساس الإبستمولوجي

ما دامت بلاغة الجمهور حقلا معرفيا ناشئا يتبنى إبدالا معرفيا جديدا في الفكر البلاغي فهي مطالبة بتوضيح الرؤية التي يعتمدها هذا الإبدال الجديد القائم على تصور معكوس للبلاغة التقليدية، يتجه من الجمهور صوب المخاطب؛ ولذلك فأول خطوة لتوضيح هذا التصور هي إعادة كتابة تاريخ البلاغتين العربية والغربية على أساس إبدال بلاغة الجمهور القائم على مفهوم السلطة والصورة العكسية للعلاقة بين طرفي التواصل. وهذه الخطوة قد بدأها الباحث نفسه في مجموعة من مقالات تهتم بتوضيح النظرة السلبية الأفلاطونية إلى الجمهور، وهذه المقالات هي:

أ - موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي "جورجياس" و"فيدروس"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية. مجلة علمية محكمة، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلد 4، عدد 3 (2008)، 227 - 244.

ب - نقد بلاغة السلطة وتقويض سلطة البلاغة، دراسة في مشروع البلاغة النقدية. مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع 66، أبريل 2011، 49 - 58.

ج - أفلاطون في البلاغة العربية من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، جامعة مستغانم الجزائر، ع ربيع وصيف 2015.

وصدر مؤخرا كتاب "ضد البلاغة... السلطة والبلاغة والتضليل عند أفلاطون" من منشورات دار رؤية بالقاهرة، 2016. بمشاركة الدكتورين حاتم عبيد ومحمد الولي.

بعد لفت الانتباه إلى تركيز الباحث على التنقيب في كتابات أعلام لم ينالوا حظا وافرا في الدراسات البلاغية العربية مثل أفلاطون، نشير كذلك إلى أن همّ كتابة تاريخ جديد للبلاغة الكونية هو أحد مسارات مشروع الباحث، فعماد عبد اللطيف له طموح كبير يجسده مشروع ضخم تصبح فيه بلاغة الجمهور جزءا منه، وهذا المشروع الكبير يتكون من عدة مسارات أهمها بلاغة الجمهور ومسار مراجعة جذور علم البلاغة لاستكشاف بلاغات مهمشة، وهذا الاستكشاف يتعلق برغبة في إعادة كتابة تاريخ علم البلاغة على نطاق كوني على الرغم مما يعترض ذلك من صعوبات. أما باقي المسارات الأخرى[1] فيمكن ضمها إلى مباحث "بلاغة الجمهور" من إعادة النظر في وظيفة البلاغة ومناهج تحليلها وفتح أفق تحليل خطابات الحياة اليومية وإعادة تعريف مفهوم الجمهور ثم تقريب البلاغة من القارئ العادي، فـ"البلاغة

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور في تحليل الخطاب السياسي، بحث في البلاغة المهمشة"، ص:196.

أيضا حقل خبرة إنسانية، وممارسة تواصلية يومية، يحتاج جل البشر -وعوا بذلك أم لم يعوا- إلى الإفادة من الإسهامات المعرفية فيه".[1]

وهذا عمل يحتاج إلى تضافر جهود عدة باحثين لأن باحثا واحدا ليس بمقدوره إنجاز الشيء الكثير مهما رصدت له من إمكانات، ولذلك نستحضر في هذا المقام مفهوم الجماعة العلمية الذي قال به توماس كون، ليصبح هذا العمل المنوط ببلاغة الجمهور في إطار عمل مؤسسي وليس على مستوى الأفراد، والوعي بهذا العمل الجماعي نجده حاضرا في تصور الباحث وهو يطور مشروعه، ودلالة على ذلك نقتبس إشارة جاءت في هامش إحدى الصفحات يذكر فيها الباحث ما يأتي: "يقود كاتب هذا البحث [عماد عبد اللطيف] فريق عمل مكونا من ثمانية باحثين لدراسة استجابات الجمهور في مدونة ضخمة من الخطب المصرية فيما بين 1652 - 2010، بدعم من جامعة القاهرة"،[2] فإذا كان حديثه هنا عن بلاغة الجمهور فما بالك بحديثه عن مشروعه الكبير. كما أن الباحث فتح أفقا غير مألوف في الدرس البلاغي، يقترح فيه دراسة استجابات الجمهور للأدب في التراث العربي في سياق التواصل المباشر، يقول: "ويتبادل الأديب (أو راويه) مع الجمهور الاستجابات المنتجة وجها لوجه؛ مثل الاستحسان أو الاستهجان، طلب التكرار أو التشويش، طلب التفسير أو التعليق..."[3] ولا يكتفي بالإشارة فقط، بل يوجه مرتاد هذا المسلك بمجموعة من الخطوات المنهجية، نجملها في ما يأتي:

(1) عبد اللطيف (عماد): "مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر"، ص:252.
(2) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، هامش ص:35.
(3) نفسه، ص:144.

- جمع المادة المشتغل عليها، والإشارة إلى بعض المراجع في هذا الباب.
- تحليل تداولي للخطابات الأدبية.
- الوقوف عند العلاقة بين طبيعة الخطاب والاستجابات التي تشكلها.
- تصنيف الاستجابات تأريخيا ورصد تطوراتها.
- تقديم مقارنة بين مختلف الاستجابات المسجلة عبر العصور والثقافات.[1]

وتبقى المهمة الكبرى متجلية في دراسة مفاهيم بلاغة الجمهور من مقاربة إبستمولوجية وعدم الاكتفاء بجانبها اللغوي والمعجمي، كما يمكن البحث في مدى قدرة تلك المفاهيم على محاورة مفاهيم مشاريع بلاغية أخرى في إطار حوار كبير بين المشاريع البلاغية العربية على وجه الخصوص.

وفي هذا السياق تساءل الباحث حيدر سلامة عن الداعي إلى ظهور بلاغة الجمهور بوصفها مشروعا وليس نظرية قائلا بأن "ذلك المشروع البلاغي لم يأخذ بعين الاعتبار البحث في الأدبيات الفلسفية واللسانية عن مفهوم المخاطب/ المتكلم، الأمر الذي جعله أشبه بمشروع يظهر من العدم، وكأن هذا المفهوم حكر على تاريخ البلاغة وحدها".[2] كما جعل مركزية المتكلم التي يحاول عماد عبد اللطيف تقويضها موجودة كذلك في تاريخ الفلسفة وليست حكرا على البلاغة، ومن ثم قال بـ"أن البحث عن تاريخ هذه النظرية وصناعة تاريخ بديل لها، لا يمكن تحديده

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:145.

(2) علي سلامة (حيدر): "نقد أيديولوجيا المنهج والنظرية بحث في لغة اللغة لبلاغة الجمهور"، على الرابط: http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19271

ضمن تاريخ البلاغة العربية فقط، وإنما له تمفصلات وتداخلات كبيرة مع مجمل مشاريع الثقافة العربية عامة والفلسفية خاصة"،[1] بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ تمثل بلاغة الجمهور بحسب رأيه ""المخرج التاريخي" لأزمة العقل والعقلانية في تاريخ الثقافة العربية"،[2] بشرط أن تحقق بلاغة الجمهور التفاعل مع المشاريع الفكرية العربية الكبرى من قبيل مشروع محمد عابد الجابري وزكي نجيب محمود وعبد الله العروي وحسين مروة وغيرهم، بالإضافة إلى بحثها في حقول الفلسفة عبر مراجعة الأسس النظرية والفلسفية والإبستمولوجية.

4 - تأسيس إطار تحليلي

أسس الباحث مشروعه البلاغي ولم يضع له إطارا تحليليا قائم القواعد لدراسة الموضوع المحدد في استجابات الجماهير، لأن بلاغة الجمهور "لا تقدم حزمة من الإجراءات والعمليات المحددة التي تطبق على ظاهرة ما"،[3] ولكن دراساته فيما بعد كانت توضح ملامح ذلك الإطار المفتوح على اجتهادات الباحثين الذين ينضمون إلى الكتابة في مشروع بلاغة الجمهور وخاصة من زاوية توضيح إمكان الاستفادة من هذا الحقل البلاغي الناشئ. أما عمل الباحثين فليس من المُنافي للواقع أن نعد الكتاب الجماعي "بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات" فضاءَ تَجمُّع علمي -بتعبير توماس كون- من الباحثين ذوي خلفيات متعددة درست الأسس النظرية

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:29.

لبلاغة الجمهور كما طبقت بعض المفاهيم المستلهمة من عدة مناهج على مدونات تمثل استجابات جماهيرية على مستوى ثلاثة خطابات متباينة بين السياسية والدينية والسردية. فمثل هذه الدراسات هي التي من شأنها رسم إطار تحليلي ومن شأنها بلورة مفاهيم قادرة على الوصف والتحليل في مساحة إبداعية.

خاتمة

كانت السطور الماضية محاولة لفتح البحث في تاريخ الأفكار البلاغية العربية من زاوية التحليل الإبستمولوجي باستخدام مقولة الإبدال المعرفي المرنة التي تسهم في وصف التطور التاريخي للأفكار، ومن ثم فهي محاولة للمضي في هذا الاتجاه بعد إعادة قراءة الفكر البلاغي العربي من جديد وصولا إلى حاضرنا.

وبناء على ما سبق تعرفنا أن:

البلاغة واحدة ولكن النظرة إليها مختلفة بحسب كل إبدال، فليس الإبدال سوى تلك النظرة التي تستند إلى قواعد منسَّقة العلاقات بينها داخل نسق يحدد المشروع ويقيم ركائزه، والباحث في الإبدال الجديد يرى العالم بمنظار ذلك الإبدال؛ إذ يُفسِّر الوقائع البلاغية من زاوية منظاره، ولكن عين المنظار قد لا تستوعب وقائع أخرى أو قد يدركها ولكن قواعد الإبدال لا تستطيع وصفها وتحليلها، مما يضع الإبدال الجديد أمام المحك؛ فيصبح الانتقال إلى إبدال جديد آخر متوقعا انطلاقا مما عجز عنه الإبدال الممتحن.

قرأ الباحثان التراث البلاغي العربي وصنّفاه إلى مجموعة من الإبدالات المختلفة، فمحمد العمري جعل التراث البلاغي بين إبدالين مختلفين، الإبدال الأول سماه بلاغة الانتشار ويمثله كل من الجاحظ والجرجاني

وحازم القرطاجني بالإضافة إلى أعمال الفلاسفة المسلمين، إذ نلتقي مع البلاغة بوصفها العلم الكلي والشامل الذي تلتقي فيه مجموعة من علوم اللسان والإنسان ممثلتين بجناحي التخييل والتداول، أما الإبدال الثاني فسماه بلاغة الانحسار ويمثله كل من القزويني ومن تلاه من الشراح والملخصين في قراءتهم عمل السكاكي. وبناء على ذلك أعاد محمد العمري تعريف البلاغة وفق هذا الطابع الكلي الذي يدور في فلك الاحتمال والتأثير، ومن ثم، فالبلاغة العامة عنده تستلهم إبدال الانتشار الذي بعثه من مرقده ليوسع دائرة اشتغاله على مجموعة من الخطابات المعاصرة خاصة في تحليل جوانبها التداولية الحجاجية.

يحاول محمد العمري بناء بلاغة مستوعبة لكل المجهودات البلاغية على مر تاريخ الفكر البلاغي العربي؛ لذلك اهتم بتلك المجهودات التي ترتقي إلى مستوى الأنساق ليستخلص القوانين الكلية لعلم البلاغة مستوعبا تاريخ البلاغة العربية. غير أن الرجوع إلى التراث لا يستدعي تبني منظومته المصطلحية بشكل حرفي بقدر ما يدعو إلى خلق منظومة وفق ما يحتاجه البحث من هذا المنظور الشمولي المستوعب لكل الإنجازات سواء التخييلية أو التداولية أو هما معا في منطقة تقاطعهما.

ويقف محمد العمري بمشروعه البلاغة العامة عند الأنساق البلاغية في مسار البحث البلاغي العربي، لنخلص معه في إطار تصوره للفكر البلاغي بأنه يقوم على ما استخلصه من معايشته لتلك الأنساق، وهذه الخلاصات أو القواعد هي ما يشكل قواعد البحث الإبستمولوجي البلاغي.

بينما صنف عماد عبد اللطيف هذا التراث نفسه إلى ثلاثة إبدالات،

هي البلاغة القرآنية، والبلاغة الأدبية، والبلاغة الإنشائية، ولكنه لم يستلهم أي إبدال منها، بل جاء بإبدال جديد قائم على نظرة معكوسة تنتصر للطرف الثاني في العملية التواصلية وهو المخاطب، فالبلاغة سواء العربية أو الغربية -عنده- على مر تاريخها تخدم المتكلم بغية السيطرة والتحكم في المخاطب.

تبقى بلاغة الجمهور مسارا من خمسة مسارات تؤطر مشروعا كبيرا للباحث، وإذا كانت بلاغة الجمهور قد حددت منطقة بحثها البلاغي في استجابات الجماهير فهي تظل منطقة بحثية في أرض البلاغة الرحبة.

تشكل كتب التدريس سلطة معرفية ترافق ظهور الإبدالات الجديدة، ولذلك، فلا بد من إعادة كتابة تلك الكتب التعليمية لتساير تطور المعرفة الحاصلة في الحقل البلاغي العربي بشكل خاص والعالمي بشكل عام. والأمر لا يتوقف عند الكتب المدرسية بل لا بد من أن يتجاوزه إلى إعادة كتابة تاريخ التراث البلاغي العربي بتغير الإبدال المعرفي.

الفصل الثاني

البلاغة العربية وإشكالية المصطلح

تمهيد

يعد المدخل المفهومي/ المصطلحي ذا أهمية كبيرة في معرفة خريطة البلاغتين العربية والغربية، فهذا المدخل يسعفنا -مثلا- في رصد المفاهيم والمصطلحات البلاغية، منذ الجاحظ وصولا إلى اجتهادات البلاغيين في الثقافة العربية المعاصرة ويكفي أن نشير هنا إلى مفهوم البديع مثلا وتطوره من ابن المعتز وصولا إلى السكاكي، من معناه العام إلى معناه الضيق، المحصور في معرفة وجوه المحسنات اللفظية والمعنوية، ومثل ذلك مفهوم البيان وغيرهما.

ولكن الركون إلى هذا المدخل ورصد تلك المفاهيم والمصطلحات لا يعدو أن يكون مرحلة تأريخية لها منذ نشوئها إلى استوائها على سوقها مرورا بلحظات تطورها، فالبقاء عند هذا المدخل من شأنه أن يعزز الخلط المفهومي والمصطلحي الذي عرفه البحث البلاغي منذ القِدَم، كالذي نقرؤه مع عبد القاهر الجرجاني في الدلائل، إذ يقول: "لا ترى نوعا من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علَّموا الناس، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والعلم في "علم الفصاحة" بالضد من هذا"،[1] وهو الإحساس نفسه الذي نلحظه مع منظري هذين المشروعين البلاغيين في حديثهما عن التراث البلاغي.

---

(1) الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، ص:455.

إن الرصد التاريخي لمفاهيم البلاغة ومصطلحاتها لن يكون ذا منفعة إلا إذا قرئت تلك المفاهيم والمصطلحات ضمن مساراتها التاريخية، أي ضمن المشاريع البلاغية الكبرى التي شكلت منعطفات حاسمة في تاريخ البحث البلاغي، والاحتياط من تلك المحاولات الاجترارية التي لا ترقى إلى مستوى المشاريع وبعد ذلك تأتي المرحلة الثانية الأكثر عمقا، وتتجلى في مساءلة تلك المفاهيم بالبحث عن أسباب تحولها بين المشاريع وقبلها ضمن المشروع الواحد، وهنا تبرز محاولتنا في الوقوف عند مجموعة من المفاهيم المؤسِّسة للمشروعين قيد البحث.

سنتتبع المفاهيم بدءا من تعرف مدى حضور السؤال المصطلحي عند الباحثَيْن وكيفية تعاملهما معه في إطار بناء مفاهيم مشروعيهما؛ لنفصّل فيما بعد في دراسة تلك المفاهيم داخل نسقيهما وتحديد العلاقات فيما بينها.

المبحث الأول

دراسة المنظومتين المصطلحيتين للمشروعين

نهدف من خلال هذا المبحث إلى البحث في المنظومتين المصطلحيتين لهذين المشروعين البلاغيين على مستوى البعد المفهومي، وهذا الجمع ليس اعتباطيا، ولكنه يفوق قضية رصد هاتين المنظومتين بين هذين المشروعين إلى مدى البحث عن الرؤية البلاغية الجديدة في الساحة العربية، فلا غرو في أن كل مُنَظِّر في أي حقل معرفي لابد من أن يجابه همّا عسيرا يتمثل في كيفية تمثل مفاهيم مشروعه وصياغتها وفق الفلسفة التي يسير عليها. ومن ثم، فصياغة منظومة مصطلحية ليس أمرا لغويا يقف عند حدود الاشتقاق، بل إن الأمر يتعدى ذلك بكثير إلى البحث عن سبيل التوظيف الأمثل لمفاهيم تخدم مشروعه برمته وتسلحه بمعرفة قادرة على استيعاب المنجز التنظيري ومجابهة خطابات على المستوى الإجرائي وصفا وتحليلا ونقدا. وخاصة إذا كان المشروع يجدّد صلته بالتراث البلاغي القديم الذي يزخر بمفاهيمه ومصطلحاته وما يتعلق بها من إشكالات؛ لذلك فمتتبع مشروعي هذين البلاغيين العربيين يتضح له هذا الأمر جليا. فنحن نعلم أن المصطلحات ترتبط بجانبين اثنين، الأول يخص الجانب اللغوي والاشتقاقي وهو عتبة ظاهرة يجب أن تكون مساعدة من جانب توظيف سلس ومساعد لا يعترض مستعمل تلك المصطلحات ولا يعوقه توظيفها في سياقات

تركيبية مختلفة، أما العتبة الثانية فهي مضمونية تتعلق بالجانب المفهومي للمصطلح وهو أمر أعمق يتأثر بالتطور التاريخي وبالحقول المعرفية التي قد تشترك في تداول المصطلح الواحد ولكن بمفاهيم مختلفة؛ "ولذا فكل نسق مفهومي قديم وجديد في نفس الوقت، لأنه يندرج في استمرارية مع الماضي، ويقدم تأليفا فكريا منفصلا عن نفس الماضي، أو يقدم اقتراحات أولية لتأليف جديد على الأقل".[1] ونجد تجسيد هذا الطرح في متابعتنا المنظومتين المصطلحيتين لهذين المشروعين البلاغيين سواء على مستوى المفاهيم المفردة كمفهومي المستمع والجمهور اللذين يرتبطان بحمولات مفهومية قديمة وجديدة أو على مستوى المنظومة برمتها من خلال انتماء مفاهيم بعينها إلى التراث وأخرى جديدة، ولكن بينها تواشجات في الإطار النسقي الذي يحكمها.

إن التجديد في الدرس البلاغي العربي اليوم لا يكتفي باستحضار أصل واحد لقيام عملية التجديد، بل أصبح الغرب (الآخر) أصلا ثانيا لا يمكن تجاوزه في هذه العملية التجديدية؛ إذ "لم يعد المتكأ عند قوى التجديد هو "الأصول" التراثية وحدها، بل أصبح النموذج الغربي ذاته يفرض نفسه كـ"أصل" جديد ومن نوع جديد، "أصل" ينتمي إلى المستقبل وليس إلى الماضي"،[2] وتبقى هذه الازدواجية في عملية التجديد خادمة للدرس البلاغي العربي في محاورته واسترجاع مناطقه المهمشة والمفقودة.

يحتاج كل إبدال معرفي في توجيهه المعرفة البلاغية صوب الوجهة التي يبتغيها قواعد تسهم في تنزيل تلك المعرفة على المستوى الإجرائي، إلا أنه

(1) البعزاتي (بناصر): البناء والاستدلال، ص:267.
(2) الجابري (محمد عابد): إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص:28.

قبل ذلك لا بد من بناء شبكات مفهومية ترتقي إلى مستوى التجريد قبل أن تُفَعَّل في التطبيق، ومن ثم ضرورة إنشاء منظومة مصطلحية للمشروع تمنحه شرعية الوجود الفعلي، تلك المنظومة ترسم شبكة من العلاقات للمفاهيم التي تحتويها وتُبرز بعد ذلك وظيفتها في إنتاج المعرفة متجاوزة الوظيفة التواصلية بين المنتمين إلى الجماعة العلمية في الحقل البلاغي.

إن هذه المنظومة المصطلحية التي تضم مجموعة من المفاهيم تعبر عن تشكل إبدال معرفي جديد، كما تشير إلى إحداث قطيعة غير جذرية مع البناء المفهومي للإبدال القديم أو السائد، فـ"الانتقال من إبدال إلى آخر لا يتم في صيغة توسيع المجال التجريبي ونحت مفردات جديدة للتعبير عن مفاهيم نمت في اتصال مع البناء القائم. بل يقتضي إعادة النظر في كل أسس البناء؛ حيث تُقْتَرَحُ سبلٌ جديدةٌ لإجراء التجارب وقياسها وفهمها، فيتطلب ذلك إبدالا جديدا"،[1] وهو ما نحاول الوقوف عنده عيانا مع هذين المشروعين المُجدِّدَيْن.

المطلب الأول: المفاهيم البلاغية وإنتاج المعرفة البلاغية

1 - مفاهيم أم مصطلحات؟

تتجاوز دراسة المفاهيم في هذين المشروعين مسألة الاختيار لتُلامِسَ منطقة الإجبار والاضطرار، فتجسيد المعرفة البلاغية لا يتحقق إلا من خلال أدوات تخوض غمار وصف الخطابات وتحليلها ونقدها وتوجيهها

(1) البعزاتي (بناصر): البناء والاستدلال، ص:303.

وفق التصور الإبستمولوجي للمشروع، ومن ثم فرصد هذا البعد المفهومي نابع من كون المدخل المصطلحي يعد أحد أهم المداخل الأساسية لأي حقل معرفي كيفما كان، إن لم يكن هو الأولى بالاهتمام، فالمصطلحات مفاتيح العلوم التي تشتغل فيها، فما يجعل العلم علما هو اتصافه بالموضوعية دون اكتفائه بالذاتية، خاصة في العلوم الإنسانية، إذ لا تُصْبِحُ الذاتية إلا محطة أولى سواء في الكتابة أو القراءة تعوزها الصفة العلمية لتبريرها، "فإذا لم يتوفر للعلم مصطلحه العلمي الذي يعد مفتاحه، فقدَ هذا العلم مسوغه، وتعطلت وظيفته، ومن هنا كان لابد من تحديد الألفاظ والمفهومات، لأن مثل هذا التحديد هو المنطلق الأول في الفكر العلمي"،[1] ومن ثم يلزم أن يكون المصطلح مُحَدَّداً قابلا للوصف أولا، قَبل أن يكون مُحَدِّداً وواصفا دون أن يشوبه في هذا التحديد لَبس أو غموض من شأنهما أن يبعداه عن العلمية والموضوعية ليدفعا به في خانة الخلط والعشوائية أو التعايش مع مصطلحات أخرى، لأن "معرفة المصطلح تفضي إلى فهم المادة العلمية، فضلا عن أن توحيد المصطلحات يؤدي إلى انطلاق الباحثين والمؤلفين من قاسم مشترك فيما يؤلفون ويكتبون".[2] ويزداد الاهتمام بالجانب المصطلحي إذا تعلق الأمر بحقل البلاغة؛ إذ لا يخفى على متتبع مسار البلاغة العربية أنَّ قدر هذا العلم "أن يعاني من أزمة اصطلاحية تزداد مع تراكم القرون إثر القرون في عمره الطويل"،[3] أزمة اعترت القرون الأولى لمهد البلاغة العربية أيام كانت متفرقة بين عدة روافد معرفية، أسهم فيها

(1) عزام (محمد): المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، ص:7.
(2) مطلوب (أحمد): بحوث مصطلحية، ص:3.
(3) عبد اللطيف (عماد): "أزمة المصطلح البلاغي العربي: مظاهر وأسباب ومقترحات"، ص:117.

قولهم "لا مُشَاحَّةَ في الاصطلاح"، بيد أن نشأة مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور في التربة العربية اليوم من شأنه أن يقلل من هذه الأزمة المصطلحية، وخاصة في جانبها المتعلق بالترجمة، فهذا الأمر يقصي قلق عنصر الأجنبي الذي طالما كان مُشوشا على البنية المصطلحية للحقول المعرفية التي نشأت في تربات غربية، يجد باحثونا العربُ صعوبة في استنباتها في التربة العربية، خاصة إذا اعتمدوها على المستوى الإجرائي دون عناء رصد خلفياتها المسؤولة عن إنتاجها، لتنقلب الآية فبعد أن يستخرج النقدُ المفاهيم والمصطلحات من الخطابات على تنوعها، نصبح أمام نقد عربي يبحث عنها في خطاباتنا التي قد لا تسعفه في ذلك، لأن "المصطلح لا يأتي من فراغ. بل هو صناعة تزدهر في بيئات تنتج المعرفة والصنائع والعلوم".[1] أما استخدام مصطلحات أجنبية مثل (Public /Audience وAuditoire) في إطار هذين المشروعين البلاغيين العربيين سيسد تلك الهوة أو يقلص منها؛ لأن مثل هذه المصطلحات تخضع لإعادة تشكيل في إطار نسقي ينشد وحدة الرؤيا انطلاقا من خطابات تفرزها بعد البحث فيها، حتى إذا ما قَصُرَ مصطلح عن تلبية الغرض منه إزاء خطاب ما، ينبغي على الباحث إذ ذاك اقتراح ما يعبّد الطريق ويذلل العقبات لتستمر حياة المصطلح في طريق الوصف للعلاقات النصية دون لبس أو غموض أو ترك المجال لبروز إبدال جديد إذا اتسعت حالات عدم التوقع أي الوقائع البلاغية التي تستعصي على مفاهيم هذا الإبدال.

استهللنا حديثنا بعنوان على صيغة سؤال هو: مفاهيم أم مصطلحات؟، وكان في طرحه إشارة إلى العنوان الفرعي الذي حمله المؤلَّف الجماعي لبلاغة

(1) هاني (إدريس): ما وراء المفاهيم.. من شواغل الفكر العربي المعاصر، ص:13.

الجمهور،[1] وهو "مفاهيم وتطبيقات"، ولذلك نرى ضرورة التمييز بين المصطلح والمفهوم قبل المضي في معالجة مفاهيم المشروعين البلاغيين.

لقد خص الباحثون لفظ المصطلح بعدة تعريفات تشترك أغلبها في كونه خاضعا للاتفاق أولا، ودالا على أشياء بعينها ثانيا، فهو "عرف يتفق عليه جماعة فإذا ما شاع أصبح علامة على ما يدل عليه"،[2] فبهذا المعنى يكون المصطلحُ "اللفظَ الذي نُعَبِّرُ به عن المفهوم داخل الحقل العلمي الذي نعالج فيه المصطلح".[3] أما تحول المفهوم إلى مصطلح فهو تحول من التصورات الفردية إلى تصور جماعي؛ لأن "المفهومَ الحق لا يكون إلا جماعيا لأنه يصير مصطلحا لدى مجموعة من الناس في مجال علمي أو تداولي خاص".[4] وقد تنبه الباحث عبد اللطيف إلى هذا الجانب المصطلحي قائلا فيه: "الاصطلاح -غالبا- وليد الإدراك وبناء التصورات conceptualization. ربما تلخص هذه العبارة نشأة المصطلحات في المعارف والعلوم. ففي البدء تدرك الظواهر والمفاهيم التي يقدمها الواقع، ثم تنشأ تصورات لها في الذهن، قد تصاغ لغويا في شكل تعريف، ثم تطلق عليها تسمية، وتتحول التسمية عبر الشيوع والاتفاق إلى مصطلح".[5] يشير هذا النص إلى أمر مهم يتمثل في أسبقية المفهوم على المصطلح، فالمفهوم بعد

(1) بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم الدكتورين: حاوي (صلاح حسن) وصديقي (عبد الوهاب). دار شهريار- العراق، ط1، 2017.
(2) مطلوب (أحمد): بحوث مصطلحية، ص:7.
(3) مغراوي (الحبيب): "تعقيب على ورقة "اشتغال المصطلح في نسق المشروع البلاغي عند القاهر الجرجاني" لعبد الرحيم وهابي وعبد القادر بقشى"، ص: 287-288.
(4) مفتاح (محمد): "ما المفهوم؟"، ص:14.
(5) عبد اللطيف (عماد): "أزمة المصطلح البلاغي العربي"، ص:118.

اتخاذه تسميته يصبح مصطلحا باتفاق الباحثين عليه، ثم انتشاره بينهم بكثرة استخدامه وتداوله، فإدراج "مفاهيم" عوض "مصطلحات" في هذا العمل يرجع إلى جدة البحث في هذا المشروع البلاغي في إطار جماعي بعد أن كان شبه محصور في أعمال صاحبه، وثانيا يشير عدم قبولها على أنها مصطلحات إلى ضرورة البحث فيها وتجريبها في خطابات متنوعة لتبرز كفاءتها من عدمها، لأن بلاغة الجمهور "ليست... في الوقت الراهن. منهجا علميا بالمعنى الأول؛[1] فهي لا تقدم حزمة من الإجراءات والعمليات المحددة التي تطبق على ظاهرة ما".[2] فاستمرارية البحث في هذه المفاهيم هو ما يمكن الأخذ به. وهو ما يحفز على البحث في مدى توافقها بين مستويي التنظير والتجريب. ومثل هذا الأمر نجده عند محمد العمري وبشكل واضح، إذ تصبح المفاهيم مرتبطة بالبحث في النسق وعن النسق؛ فـ"المسألة تتعلق بمحنة نسق لا بجولة ألفاظ"،[3] وما يمكن أن نختم به هذه الزاوية هو "أن المفاهيم أشبه ببضائع، لا تكسب قيمتها إلا بأن تتسع قاعدة تداولها وتجد لها مع مرور الأيام استعمالا يتعدى دائرة النخبة نفسها. إنها في حاجة إلى طبقة وسطى ومستوى من مستويات الاستهلاك الجماهيري".[4]

تكفل الباحث عبد الوهاب صديقي[5] باستقصاء العدة المفهومية لبلاغة

(1) بمعنى نسق محدد من أفكار وتصورات تتطور عنها إجراءات وعمليات تحليل معينة، وهو المقصود بتعبيرات، مثل: المنهج الأسلوبي، أو المنهج النفسي... (عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:29).

(2) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:29.

(3) العمري (محمد)، أسئلة البلاغة، ص:8.

(4) هاني (إدريس)، ما وراء المفاهيم، ص:12.

(5) انظر صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا"، ص:118-135. وانظر كتابه: بلاغة جمهور الخطاب السياسي قضايا ونماذج، ص:19-41.

الجمهور، وحاول إعطاء تعريف لكل مفهوم على حدة من خلال منجز الباحث عماد عبد اللطيف، غير أن معالجتنا للبعد المفهومي هنا تختلف مع عمله من وجهين:

أولا: إن المفاهيم التي نعالجها في هذا الصدد هي حاضرة في تنظيرات باحثِينَ وتطبيقاتهم، وافدين على هذه الجزيرة البحثية أقصد بلاغةَ الجمهور، وليست مقصورة على صاحب المشروع، ونعالج معها مفاهيم مشروع البلاغة العامة للأستاذ محمد العمري.

ثانيا: إن تناولنا لهذه المفاهيم يختلف عن تجميعها فيما يشكل معجما بلاغيا لهذه البلاغة، بل إن تناولنا لها يرصدها في البعدين التنظيري والتطبيقي كما سبقت الإشارة إلى ذلك وصفا وتحليلا ونقدا.

2 – المفاهيم وإنتاج المعرفة

سيكون من البدهي أن نقول إن المفاهيم والمصطلحات وسائل لتحقيق التواصل بين الباحثين المشتغلين في المجال الواحد، فتحول المفاهيم إلى مصطلحات غالبا ما يأخذ بعرف الجماعة العلمية وتواضعها عليها، ولهذه الفكرة دلالة أن المفهوم ينشأ على مستوى فردي ثم يتحول إلى مستوى الجماعة التي تتداوله، وحين نتحدث عن الفردية في إبداع المفاهيم فإن ذلك يرتبط بخلفية الباحث، فـ"لكي يلاحظ المرء واقعة ما، يجب أن يكون تكوينه المفهومي متهيئا لذلك"،[1] وهذا التكوين المفهومي مرتبط بالباحث صاحب الإبدال الجديد، وقد يكون له ارتباط بالتكوين المفهومي للإبدال السائد مع الباحث نفسه، ولذلك فالقطيعة الجذرية بين إبدالين معرفيين ليس لها واقعها

(1) البعزاتي (بناصر): البناء والاستدلال، ص:305.

البلاغي، لأن "العمل في سياق تحول مفهومي شبه شمولي لا يعني فقدان الصلة بين المفاهيم القديمة والجديدة كلية".[1] فمن طبيعة هذا الاتصال المفهومي بين الإبدالات أن نتحدث عن استعمال مصطلحات في هذين المشروعين لها صلة بالإبدال السائد، كاستخدام العمري مصطلح الإنشاء وهو مصطلح عربي قديم ولكن استخدامه المفهومي في هذا المشروع مغاير تماما لمفهومه في القديم، ومثل ذلك استخدام عماد عبد اللطيف مصطلح المخاطب الذي سيتحول فيما بعد إلى مصطلح الجمهور، فعلى الرغم من استخدام مصطلحي المخاطب والجمهور في الدرس البلاغي القديم فإن محتواهما المفهومي متباين كل التباين، وقد نستغني عن ذكر الأمثلة بمصطلح البلاغة الذي يختلف مفهومه سواء بين هذين المشروعين أو بينهما وبين الإبدال السابق لنخلص إلى أن للمفاهيم حياة تشكل سيرورتها.

إن وظيفة المفاهيم والمصطلحات تتعدى مسألة تحقيق التواصل بين أفراد الجماعة العلمية إلى كونها وسائل لإنتاج المعرفة، وبهذا المعنى نفهم قول إمانييل دانبلون: "البلاغة.. فن تمثيل كل ما يُكَوِّن مادة العالم الإنساني".[2] فالمصطلحات التي تحيل على المفاهيم ليست مجرد كلمات جوفاء أو كلمات يمكن استشفاف مفاهيمها بالمعنى المعجمي، إذ لها "دور في ضبط التعامل في الحياة اليومية والعملية، وفي **بناء النظريات والمناهج والنماذج في الحياة العلمية**"،[3] فالأمر معقد أشد التعقيد لأنه مرتبط بمسألة بناء فكري للمفاهيم ومرتبط كذلك بمسار تطورها التاريخي، فـ"مسألة المصطلح، إذن، ليست

(1) نفسه، ص:308.

(2) Danblon (Emmanuelle): La rhétorique: "à la recherche d'un paradigme perdu", p:26.

(3) مفتاح (محمد): المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، ص:5. [التشديد من عندنا].

مسألة البحث عن كلمة أو كلمات. إنها مسألة مرجعية ونموذج وسلطة، وقبل ذلك وبعده، هي مسألة إنتاج المعرفة".[1]

جاء في النص السابق أن المفاهيم ترتبط بالإبدال الذي تشتغل فيه ويتخذها أدوات اشتغاله، وهذا ما أسهبنا فيه القول في الفصل الأول، ولعل الحديث عن الإبدال في هذا المقام أضحى سهل المنال، فإذا كان "التفكير العلمي في ظاهرة من الظواهر كيفما كانت كثيرا ما لا يتأتى إلا عبر واسطة، هي النموذج"،[2] فإن مرجعية البلاغة العامة، مرجعية فلسفية تعتمد على الكلي، كما لا تخلو من نزعة الهيمنة التي جسدتها البلاغة الجديدة مع بيرلمان وزملائه؛ فنظرة سريعة على المنظومة المصطلحية للبلاغة العامة تجعلنا أمام تشييد هذا الكلي والعام ونزعة الهيمنة والسيطرة والضم مع احترام خصوصيات الأجزاء لتبقى الهيمنة شرعية.

أما فيما يخص بلاغة الجمهور فهي تعترف ذاتيا بأنها لا تروم العمومية، بقدر ما تشكل الجزئية، فهي جزء ضمه عبد اللطيف أولا إلى الإطار التحليلي لنورمان فيكلوف، ثم اقترحه بوصفه مستوى من مستويات التحليل في فترة لاحقة على عملية التأسيس، ويتضح بشكل جلي من خلال ذلك إمكان قيام علاقة تكامل بين المشروعين.

تعود مرجعية البلاغة العامة، إذن، إلى البلاغة الجديدة ونزعة "الهيمنة"، وإلى التراث البلاغي العربي، وبالضبط إلى البلاغة التي تنشد الانتشار والعمومية، وتتضح هذه المرجعية الثانية باستحضار إبدال البلاغة العامة،

(1) الجابري (محمد عابد): "حفريات في المصطلح التراثي مقاربات أولية"، ص: 21.
(2) نفسه، ص: 14.

المتمثل في بلاغة الانتشار في مقابل بلاغة الانحسار، فيما تتجلى مرجعية بلاغة الجمهور في التغايرات التي منحتها لمفهوم الجمهور بدءا من أفلاطون وأرسطو وصولا إلى دراسات التواصل الجماهيري. كما أننا لا نغفل عن الجانب الإيديولوجي في مثل هذه الاختيارات غير أننا ننأى عنه في هذا التحليل.

تتجلى المهمة الأولى التي يجابهها المفهوم في تقديم وصف مجموعة من الوقائع البلاغية قصد توحيد التفكير فيها وصفا وتحليلا ونقدا، لأن "المفهوم لا يكتفي بالتحليق فوق عالم الموضوعات ليعكس كثرتها، فالفكر يُدخل الوحدة على الأشياء بواسطة عمل تلقائي حسب معاييره، ففي كل مفهوم تسود إرادة توحيد المعرفة".[1] وسمة التحليق خاصة بالمفهوم الذي يرتقي درجات نحو التجريد، ولكنه يظل رهينا بمعطيات واقعية عليه أن يخوض فيها. وفي إطار إعطاء تعاريف للمصطلحات في حقل معرفي ما، لا بد من التنبّه إلى تغير مفاهيمها بين الحقول المعرفية المتاخمة له، إذ "لا يستعمل المفهوم إلا في المعنى الذي يعطيه له التعريف الإجرائي. ويجب إذن تخليص المفهوم من كل المضمرات والارتباطات التي يذكر بها اسمه عند ما تم اقتباسه من ميدان تجريبي آخر"،[2] وبذلك فمفهوم الجمهور مثلا هو مغاير تماما لمفهوم الجمهور في باقي الحقول المعرفية الأخرى كعلم نفس الجماهير، وعلم اجتماع الجماهير، والدراسات الإعلامية وغيرها، وإن كان يشابه بعض النظرات الإيجابية التي تعطيها له بعض التوجهات التي اتخذتها "بلاغة الجمهور" روافد معرفية لها. والحال نفسه مع مفهوم

(1) وعزيز (الطاهر): "المفاهيم طبيعتها ووظائفها"، ص:14.
(2) نفسه، ص:16.

المستمَع الذي وإن اقتبسه محمد العمري من بيرلمان عبر الترجمة فهو مُختلف في التوظيف بين منحيين، منحى نحو المستمع الكلي مع بيرلمان والآخر نحو الخاص والذاتي مع محمد العمري.

المطلب الثاني: الهمُّ المصطلحي في المشروعين

يبرز حضور السؤال المصطلحي بشكل كبير مع الباحثَين مما يجعل الأمر ملحا في الوقوف عنده لاستكمال الرؤية المصطلحية والمفهومية عندهما في التنظير لمشروعيهما قبل تفصيل الحديث عن مفاهيمهما.

1 - السؤال المصطلحي عند محمد العمري

أشرنا في بداية هذا البحث إلى أن السؤال المصطلحي يحضر بشكل أساسي عند كل من محمد العمري وعماد عبد اللطيف، ومتصفح كتب العمري سيجد هذا الأمر حاضرا بشكل كبير في كل كتبه التي تؤسس مشروعه، فهو لا يتقدم خطوة حتى يُفَصّل في كل مفهوم يعترض سبيله غير مبالٍ بتعريفه المعجمي بشكل كبير، آخذا بتحولات المفاهيم داخل النسق الواحد أو تنقلاتها عبر أنساق قد تكون متباينة تجمعها أرض البلاغة. ويبقى مفهوم "البلاغة" أهم تلك المفاهيم التي شغلت باله وقضت مضجعه، فتتبع حضورها في الثقافتين الغربية والعربية، كما عرفنا في الفصل الأول. وفي إطار هذا الهم المصطلحي تبرز مجموعة من المصطلحات التي تنضوي تحت المفهوم الأكبر وهو البلاغة، وهذه المصطلحات يمكن تصنيفها -مبدئيا- باعتبار جناحي البلاغة العامة إلى مصطلحات تنتمي إلى التخييل ومصطلحات تنتمي

إلى التداول مع العلم أن هذا الفصل غير مأمون العواقب فتصور البلاغة العامة مبني على التداخل والتقاطع بين المنطقتين وتبعا لذلك تتداخل مصطلحاتها، فالحديث عن الحجة مثلا في منطقة التداول لا ينفي عنها أن تتحول إلى منطقة التخييل لتحل محل الصورة، والعكس صحيح، ولنا عودة إلى هذه القضية لاحقا.

وقبل أن نتعرف المصطلحات التي شكلها محمد العمري، لا بد من تعرف تصوره حول المفاهيم والمصطلحات وتعرف طريقة اشتغاله عليها بشكل عام، وهذا التتبع له علاقة وثيقة بما ذكرناه عنه سابقا فيما يخص الأسس الإبستمولوجية التي يقيم عليها مشروعه البلاغي.

يجابه تأسيس منظومة مصطلحية للبلاغة العامة تستوعب مختلف الخطابات التي تنتمي إلى البلاغة، بوصفها بلاغات خاصة صعوبة كبيرة، ولذلك فأول ما ينبه إليه الأستاذ العمري هو أن على المشتغلين بالبلاغة العامة ألا يجعلوا البلاغة مجاورة لعلوم تَعُدُّهَا منتمية تحتها، أي أنواعا لهذا الجنس العام الذي يجمع بين التخييل والتداول، فـ"البلاغة لا تقبل الجوار"[(1)] كما يقول، إذ لا يستقيم تصور بلاغة عامة في عبارات تَعطف البلاغة على حقول معرفية تدخل تحت "سلطتها"، وهذا احتراز منهاجي يجب التنبه إليه، في إطار منظومة مصطلحية تتسم بنسقية مفاهيمها.

لا يَذكر محمد العمري المصطلح إلا وقرنه بكلمة النسق احترازا من تغير مفاهيم المصطلحات داخل العمل الواحد، وقد عاب على المشتغلين بالبحث المصطلحي الذين يكتفون بالتعريف المعجمي ولا يتتبعون

(1) العمري (محمد)، المحاضرة والمناظرة. ص:75.

المصطلحات في إطار التصور العام للمؤلف داخل عمله أي أصحاب الاتجاه التراكمي. ولذلك ففي إطار تعريفه بمشروعه البلاغي نجده دائما ينبه القارئ إلى مجموعة المصطلحات التي لا عهد له بها في ميدان البلاغة، وبخاصة البلاغة العربية. ومن ثم فعن طريق النسق "نتحرر من الحضور العيني للوقائع ونكتشف الخانات التي تتطلب مزيدا من التنقيب. وعموما فكلما أمكن تحويل المصطلحات إلى شبكة متواصلة الحلقات في علاقات عمودية وأفقية كلما أمكن الانتقال إلى التجريب"،[1] وتجدر الإشارة إلى أنه يدعو إلى استلهام إجراءات علم الأحياء في مجال المصطلح.

تحدثنا سابقا عن مفهوم الكونية وحضوره في مشروع محمد العمري ونستدعيه مرة أخرى لنشير إلى أن وضع منظومة مصطلحية لمشروع البلاغة العامة قد حضر في إطار تفاعل بين واجهتي التراث العربي والمنجز الغربي، وبينهما يقف الباحث معانيا، يقول: "وقد عانيت شخصيا من هذه الإشكالية من الزاويتين: محاولة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة بنائية، والاجتهاد في ترجمة نصوص تأسيسية من البلاغة الغربية".[2] ويتضح من قائمة المصطلحات المتعلقة بمشروعه أنها تتوزع بين مصطلحات تراثية وأخرى "حداثية"، ولا بد أن نتذكر في بناء هذه المنظومة إضافة إلى الثنائية المذكورة الثنائية الأخرى المتعلقة بالتخييل والتداول، لأن "قيام بلاغة عامة يتطلب منظومة مصطلحية تعبر عن المشترك بين التخييل والتداول، من جهة، وتميز بعض الخصوصيات التي لم تأخذ ما تستحقه من اهتمام الدرس العربي، من جهة ثانية".[3] ولا بد من الإشارة إلى أنه لا يتحدث عن "النسق المصطلحي"

(1) العمري (محمد): "مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي"، ص:87.
(2) نفسه، ص:88.
(3) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص:22.

بمعزل عن "التقطيع المفهومي" لتلازمهما الوثيق.

حين يتناول العمري المصطلحات فهو لا يكتفي بجانبها المعجمي، بل يتناولها على المستوى الإبستمولوجي من خلال دراسة مفاهيمها. وهذه المفاهيم لا بد لها من علاقات تربط بينها داخل البناء النسقي للمشروع العلمي، ومن ثم يسهل تحديد المصطلحات وتتبعها حتى في الانتقال من حقل معرفي إلى آخر، إذ في انتقال المصطلحات يجب تحديد جوهرها المفهومي لمعرفة التغايرات والتمايزات بين المفاهيم، هذا الانتقال مشهود له من خلال العلاقات البينية التي تجمع البلاغة بحقول معرفية أخرى كاللسانيات والمنطق وعلم النفس... ويشمل الانتقال المصطلح داخل الحقل المعرفي الواحد، ولنأخذ مصطلح الإنشاء مثالا على ذلك، فهذا المصطلح يدل قديما على مبحث يتحدد به الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب ويقابله مبحث الخبر، كما قد يدل لفظا على الكتابة، ولكن مفهوم الإنشاء في مشروع البلاغة العامة مرتبط بإنتاج النص سواء كان النص تخييليا (شعر-قصة-رواية...) أو تداوليا (مناظرة-خطبة...).

يقترح الباحث لتحقيق هذا العمل على مستوى الواقع أنه ينبغي "أن يترجم الهم النسقي الذي نتمنى أن يسود الدراسات الأدبية بالعمل في واجهتين متكاملتين: وضع المعاجم النسقية، والبحث النظري سواء كان قراءة في التراث أو تبيئا للحديث ترجمة وتقديما، أو حوارا بينهما".[1] والمقصود بذلك أولا، معجم نسقي يهتم بالأسئلة الإبستمولوجية للمصطلحات وليس تجميعها فحسب، أما ثانيا فهو يدعو إلى قراءة التراث قراءة نسقية تستوعب منظومته المصطلحية وهو ما عمل على تحقيقه في كتابه "البلاغة

(1) العمري (محمد): "مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي"، ص:91-92.

العربية أصولها وامتداداتها" الذي وقفنا عنده سابقا، فـ"البحث عن النسق المصطلحي هو الذي سيضع أيدينا على الكثير من الخلل في قراءة بعض القدماء الذين بسطوا سلطانهم على البلاغة العربية إلى الآن"،[1] ويقصد بذلك قراءة السكاكي التراثية لعمل الجرجاني.

إن السؤال المصطلحي عند محمد العمري هو قرين التنظير في إطار مشروعه البلاغي الذي يبحث من زاوية إبستمولوجية تساعده في وضع منظومة مصطلحية تتوزع فيها المفاهيم والمصطلحات مثل نسيج واضح المعالم والعلاقات.

2 - السؤال المصطلحي عند عماد عبد اللطيف

يمكن القول في بداية هذا الحديث المصطلحي عند عماد عبد اللطيف، إنه ليس بمستوى حضوره عند محمد العمري، فعماد عبد اللطيف حاول تأسيس مشروعه البلاغي على مستوى التنظير بالبحث عن سياق فلسفي يحتضن مشروعه البلاغي، ثم بحثه عن روافد معرفية تسهم في إفادته بفضل بعض التصورات المنهجية والإجرائية، ثم فوض إلى الاشتغال على الخطابات الجماهيرية ذات التوجه السياسي أمرَ الكشف عن مصطلحات تسهم في خدمة التصور البلاغي للمشروع. ولعل خفوت هذا السؤال المصطلحي في بناء مشروعه البلاغي هو رهين بكون الباحث يراهن على نحت مفاهيم جديدة غير معهودة في إطار إبدال غير مسبوق على مر تاريخ البلاغة "الكونية" وهو ما يحتاج وقتا أطول لينضج السؤال المصطلحي.

(1) نفسه، ص:94.

لا يُفهم من الكلام السابق على أن السؤال المصطلحي مغيب في مشروع بلاغة الجمهور، ولذلك سنحاول في الأسطر القادمة تتبع حضوره في سياق كتابات عماد عبد اللطيف، ثم نقدم بعد ذلك قراءة في مفاهيم مشروعه البلاغي من خلال الكتاب الجماعي (2017).

خصص الباحث عبد اللطيف كتابه "تحليل الخطاب البلاغي.. دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" لدراسة البعد المفهومي للبلاغة العربية، وقد جاء العنوان متسعا ورحبا غير أن المنجز كان جزئيا، فقد صرّح الكاتب منذ بداية مؤلفه بأن عمله محاولة دراسة بعض جوانب التراث البلاغي العربي في إطار البلاغة الشارحة، مدققا في موضوع البحث وهو أسلوب الالتفات في التراث البلاغي العربي، إذ قال: "هدف هذا الكتاب هو تحليل الخطاب البلاغي القديم حول الالتفات، بهدف الكشف عن مكوناته، وآليات بنائه وتطوره، وانقطاعاته، والعوامل المؤثرة فيه، وتناقضاته، وعللها، وعلاقاته بغيره من الخطابات المعرفية الثقافية والاجتماعية، وطرائق بناء النصوص البلاغية المعنية به"،[1] وقد جعله هذا البحث يقف عند مجموعة من مشاكل المصطلح البلاغي أهمها الاضطراب الاصطلاحي وما يتخذه من تجليات متنوعة، كالتعبير عن المفهوم الواحد بمجموعة من المصطلحات أو العكس أو إشكال ترجمتها أو تعريبها، كما جعله يتعرف أسباب ذلك الاضطراب الذي ينعته بـ"أزمة المصطلح البلاغي". غير أن الباحث لا يكتفي بالوصف التاريخي والتحليل المفهومي للمصطلحات بل يقترح كذلك ما من شأنه أن يسهم في تجاوز أزمة المصطلح البلاغي. من ذلك

(1) عبد اللطيف (عماد): تحليل الخطاب البلاغي.. دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، ص:10.

دعوته إلى إنشاء معجم تاريخي لمصطلحات البلاغة العربية، كما يقترح معجما عربيا موحدا للبلاغة المعاصرة،[1] وهو في ذلك يشير إلى ما أشار إليه الباحث عبد الرزاق جعنيد في دعوته إلى بناء معجم تاريخي مقترحا خطوات إجرائية لتحقيب المصطلحات تأريخها،[2] غير أننا نؤكد على ضرورة ما ذهب إليه محمد العمري من أولوية الدراسة المفهومية للمصطلحات خاصة من الجانب الإبستمولوجي. ومثل هذه الدعوات التوحيدية في مسألة المصطلح بتنا نألفها في أيامنا هذه لكثرة ذيوعها ولكن أرض الواقع لا تزال بعيدة من تلك السماء.

هذا عن قراءته المصطلحية للتراث البلاغي العربي فماذا عن التنظير لمشروعه على مستوى المصطلحات والمفاهيم؟

لم نطلع على كتابة -في حدود ما توفر لدينا- من كتابات الباحث عماد عبد اللطيف أفردها لبناء المفاهيم في التأسيس لمشروعه، ونستثني من ذلك دراستين فصل فيهما مفهومين أساسيين: هما "الجمهور" و"الاستجابة" وقد وردتا ضمن الكتاب الجماعي؛ ولذلك سنحاول تقديم تحليل لأهم مفاهيم بلاغة الجمهور من خلال هذا الكتاب الجماعي الذي يأتي في إطار تحقيق التراكم المعرفي لبلاغة الجمهور كما يتميز بتنوع المؤلفين وخلفياتهم بالإضافة إلى احتوائه قسمين نظري وتطبيقي؛ مما سيمكننا من المقارنة بين المفاهيم على المستويين معا. وقبل ذلك سنرصد أهم مفاهيم البلاغة العامة بوصفها الكل الذي يحوي الجزء.

(1) للتفصيل انظر: عبد اللطيف (عماد): "أزمة المصطلح البلاغي العربي"، ص:117-129.
(2) جعنيد (عبد الرزاق): "المصطلح البلاغي: نحو منهج للتحقيب والتأريخ "من أجل بناء معجم تاريخي لمصطلحات البلاغة العربية""، ص:129-142.

المبحث الثاني

أهم المفاهيم المؤسسة للمشروعين

تحتاج دراسة المفاهيم كلها إلى وقت يطول كثيرا؛ لذا سنقتصر على المفاهيم المؤسسة للمشروعين البلاغيين، ومن ثم سنتناول المفاهيم الأساسية لـ"البلاغة العامة"، وهي: الاحتمال والتأثير والاختيار والمقام والإنشاء والحجة والصورة. أما فيما يخص بلاغة الجمهور فسندرس فيها ثلاثة مفاهيم نعدّها ركائز أساسية تنهض بتشكيل هذا التوجه المعرفي البلاغي، كما أنها تدخل في تعريفه بوصفها دعائم هذه البلاغة، وهذه المفاهيم الثلاثة، هي: السلطة، والجمهور، والاستجابة، ونكتفي من هذه الثلاثة بمفهومي السلطة والاستجابة على أساس تعميق البحث في مفهومي الجمهور والمستمع في الفصل الثالث.

المطلب الأول: مفاهيم البلاغة العامة

1 - الاحتمال والتأثير

يشكل الاحتمال موضوع البلاغة، فموضوع علم البلاغة –حسب العمري– "هو الخطاب الاحتمالي المؤثر القائم على الاختيار مناسبة أو إغرابا. الاحتمال نابع من بناء الخطابة على ادعاء الصدق مع احتمال الكذب

(الخيال)، وبناء الشعر على ادعاء الكذب مع احتمال الصدق".[1] ولهذا المفهوم مرجعيته؛ إذ يؤسسه الباحث على ثلاثة نصوص، أولها عربي والآخران غربيان، يقول العمري: "ننطلق في بلورة هذه الإشكالية من ثلاثة نصوص لثلاثة أعلام مكرَّسين عند دارسي البلاغة القديمة والحديثة: الأول يفسر فاعلية "العدول" عن معنى (أو صيغة) إلى آخر (أو أخرى)، وهو لعبد القاهر الجرجاني ناظرا إلى الشعر أساسا ومُنْطَلَقاً، والثاني لشاييم بيرلمان في الطبيعة الاحتمالية التي تميز الخطابية عن الخطاب البرهاني القائم على البداهة والضرورة، والثالث لبول ريكور يمد فيه الجسور بين الشعر والخطابة، من جهة، وبين البلاغة والفلسفة من جهة أخرى"،[2] ومن هذه المرجعيات الثلاث للاحتمال يستخلص أن الاحتمال هو أساس الانزياح عند الجرجاني، فالمزية تكمن فيما أساسه الاحتمال والاحتمال مرتبط بالاختيار. أما نص شاييم بيرلمان فهو يتناول الاحتمال في علاقته بالخطابية، وذلك نتيجة بحثه في منطق القيم، غير أن خطابية البلاغة العامة تتجه في اتجاه مخالف لما تتجه نحوه خطابية بيرلمان، فخطابية بيرلمان تتجه نحو المكتوب ونحو المستمع الكوني فيما تتجه خطابية البلاغة العامة نحو الذاتي والشفوي والمستمع الخاص، وسنفصل في الأمر لاحقا، فيما يؤسس نص بول ريكور لتقاطع الشعرية والخطابية في الاحتمال.

إن الحديث عن بلاغة عامة تستدعي بلاغات خاصة، يحيل على العنصر المنسق لهذه البلاغة، وهذا العنصر المنسق مكون من "الاحتمال" و"التأثير" ولا يمكن بأي حال الفصل بين هذين العنصرين إلا من الجانب الإجرائي

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص: 47.
(2) نفسه، ص:43.

الوصفي؛ فالبلاغات الخاصة كلها (بلاغة السرد، وبلاغة الرواية، وبلاغة المسرح، وبلاغة الإشهار...) تلتقي في هذين العنصرين المتلازمين "(تلازم الأكسيجين والهيدروجين في تركيب الماء)... يمتد الاحتمال من أقصى درجات "التخييل" إلى أقصى درجات "التصديق". من "شاطئ الجنون" إلى تخوم العقل البرهاني الرياضي والمخبري".[1] وفي هذا السياق يسرد الأستاذ العمري فقرة مهمة ارتأينا أن ننقلها بنصها؛ لأنها مفتاح فهم علاقة البلاغة العامة بالبلاغات الخاصة، يقول: "بين هاتين العتبتين [الاحتمال والتأثير] يشتغل "الادعاء": ادعاء الخيال (الكذب) واحتمال الصدق، وادعاء الصدق واحتمال الخيال. الخيالية والصدقية "ادعاء" و"نزوع". "الادعاء" و"النزوع" كلمتان ثقيلتان في الميزان، بعد كلمتي الاحتمال والتأثير، هما البنزين الذي يحركهما. ولذلك يمتد التخييل في التصديق ويمتد التصديق في التخييل. والتصديق يستدعي محذوفا يقتضيه السياق، وهو "طلب": طلب التصديق: الخطيب يطلب انخراطنا في دعواه. أي يطلب أن نصدقه، كما أن الشاعر يطلب أن نعتبر كلامه مجرد خيال، كلام غَواية، كما جاء في القرآن "والشعراء يتبعهم الغاوون"، وفي الحديث تعليقا على قول حِجَاجي خِطابي "إن من البيان لسحرا".[2]

نستخلص مما سبق أن الاحتمال هو دائرة الخطابات البلاغية كلها، وهو محدود بين عتبتين اثنتين هما: الهذر والجنون وما يحيل عليهما والتجربة والبرهان وما يرتبط بهما. وبذلك فالاحتمال يحقق منطقة تقاطع التخييل والتداول، وينبه العمري إلى أن هذه المنطقة ذات المرجعية الريكورية (نسبة

(1) نفسه، ص: 76.

(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:76.

إلى الفيلسوف بول ريكور) تنسجم مع التصور الفلسفي العربي القديم حين تحدث الفلاسفة عن التصديق والتخييل بين الخطابي والشعري وهو الأمر الذي حاول تجسيده حازم القرطاجني في المنهاج.

2 - الاختيار

يعد الاختيار آلية عملية لإنجاز الاحتمال، إذ "يختار المُتخيّل/ المُخيِّلُ من اللغة (النحو والمعجم...الخ) والمنطق والتشكيل والموسيقى، ومن المعرفة الماضية والحاضرة مواد تلائم الحالة الوجدانية التي يجد حاجة للتعبير عنها، ويختار منها المُتداول المُحاجج طلبا للتصديق ما يناسب مقامه التداولي بأطرافه المختلفة التي يجمعها مصطلح "مُسْتَمَع"...auditoire".[1] فالاختيار مرتبط بالاحتمال ارتباطا وثيقا، إذ لا يمكن الحديث عن الاختيار في دائرة الاضطرار والإجبار والإكراه، وبهذا المعنى لا يمكن الحديث عن البلاغة إلا في ضوء الاختيار المبني على الحرية بما يناسب المقام.

3 - المقام

فصل الأستاذ العمري الحديث عن مصطلح المقام في كتابه المحاضرة والمناظرة، إذ ميز بين ثلاثة مفاهيم له قائلا: "للمقام عندنا مفهومان وظيفيان، وثالث هامشي احترازي؛ ننبه عليه حتى لا يقع فيه من يعمم عبارة "لكل مقام مقال""،[2] ومن ثم يقصي هذا المفهوم الثالث من دائرة البلاغة، لأنه بحسبه مقام ابتدائي "يفصل بين الوعي واللاوعي"،[3] وليس معيارا للتمييز بين بليغ وغير بليغ. فماذا عن المقامين البلاغيين؟

(1) نفسه، ص: 86.

(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:49.

(3) نفسه، ص: نفسها.

أ - المقام الخطابي التداولي

يرتبط بالخطاب التداولي الحجاجي الذي يتوجه إلى مستمَع ما قصد إقناعه. وهو مقام صريح.

ب - المقام الإنشائي[1]

هو من اهتمامات البلاغة العامة، لأنه يشمل الخطابي والشعري، عكس الأول الذي يهتم فقط بالخطابي. ولذلك يطلق العمري على هذا المقام اسم المقام البلاغي العام، فالعام يقتضي الخاص، والخاص يحيل على الخطابي والشعري كما سبق. وإذا كان من السهل تحديد الأثر بين المنشئ والمتلقي في الخطاب التداولي فالأمر يصعب حين تحديد مثل ذلك في الخطاب الشعري التخييلي. لأن الخطاب الشعري مبني على طلب التخييل، ولكن السؤال العالق هو: إلى من يتوجه الشاعر بخطابه؟ "فمهما خفي مقصدُ الشاعر فإنه موجود ضمنيا في إنشائه باعتباره عملا تواصليا".[2]

لفهم هذا المقام البلاغي لا بد من الرجوع إلى الخلفية التي يستند إليها العمري في هذا الباب، وهي خلفية تتصل بعمل كبيدي فاركا، لذلك فقد ترجم من كتاباته ما يخدم هذا التصور.

تحدث فاركا عن الأجناس الخطابية (القضائية/ الاستشارية/ المحفلية) والأجناس الأدبية (الغنائي/ المسرحي/ الملحمي)، وسنورد فقرة له على

(1) من تسمياته كذلك، نجد: "المقام الحضاري"، انظر العمري (محمد): دائرة الحوار ومزالق العنف كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب، ص:38. و"المقام البلاغي العام" في: المحاضرة والمناظرة، ص:51.
(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:58.

طولها لتبين المقصد، يقول: "ومن جهة أخرى فإن الأجناس الخطابية الثلاثة تمثل مقامات اجتماعية أي أنها تحدد بالنظر إلى مقاييس خارجية بالنسبة للخطاب، في حين أن الأجناس الأدبية تتميز، في الدرجة الأولى، اعتمادا على مقاييس داخلية، إن السامعين هم الذين يحددون اختيار جنس من أجناس الخطابة بينما تحدد الذات اختيار الجنس الأدبي. غير أن عدم ارتباط الأجناس الأدبية الثلاثة -بخلاف ما عليه الحال في الخطابة- بثلاثة أنماط من المقامات لا يعني، مع ذلك، أن الأعمال الأدبية توجد "خارج المقام" Hors situation، إن الكاتب، شأنه في ذلك شأن الخطيب، يتوجه إلى أحد ما (مخاطب ما)"،[1] ونتيجة ذلك أن المنشئ سواء في الخطاب التخييلي أو التداولي يتوجه إلى مخاطب يكون في الخطابة ظاهرا ومعلوما كما يظهر في الشعر الكلاسيكي ويختفي في الشعر الحديث. ولتوضيح هذا التداخل يميز فاركا بين مقامين في الأدب: "المقام الداخلي بين الناس، تلك العلاقة الماثلة داخل عمل أدبي. والمقام الخارجي، أي العلاقات بين العمل الأدبي والذي يوجه إليه هذا العمل".[2] فالمقام الخارجي مشترك بين الخطابة والأدب فيما يختص المقام الداخلي بالأدب.

وعلى الرغم من ذلك، يصعب الحديث عن المقام في الجانب التخييلي إذا تعلق الأمر بالشعر الذي يتخذ الغموض شعارا، فحينئذ تصبح "منطقة الهذيان؛ منطقة الجنون والخرف والصبيانية بالمعنى الإدراكي المعرفي، لا المرضي القدحي. هذه المنطقة تقتضي الحيطة والحذر، والسير بجانب الجدار،

(1) فاركا (كبدي): "المقام الأدبي"، ترجمة وإعداد العمري (محمد)، ص:119.
(2) نفسه، ص:120.

كما يقال. والجدار هنا هو الأسس الإبستمولوجية واجتهادات القدماء والمحدثين في الموضوع".[1].

4 – الإنشاء production du texte

محافظة على العمومية التي تتبناها البلاغة العامة في إنتاج مفاهيم تضمن لها هذه العمومية، وفي الوقت نفسه تحافظ على خصوصيات البلاغات الخاصة، يأتي مصطلح الإنشاء الذي "يدل على جميع النصوص مهما اختلفت أجناسها"،[2] ومن ثم فالإنشاء مصطلح يدل على: القصيدة، والرواية، والسيرة، والمسرحية، وغيرها... بوصفها بلاغات خاصة يحفظ لها الإنشاء هذه الخصوصيات دون أن يقصي أي واحدة منها، كما يدل مفهوم (المنشئ) على الشاعر والخطيب، وبهذا تتحقق عمومية هذا المصطلح، وهي عمومية تنشدها البلاغة العامة في علاقتها بالبلاغات الخاصة.

5 – الصورة والحجة figure et l'argument

قبل الحديث عن الصورة والحجة معا، لا بد من تحديد المقصود بالصورة في هذا المقام، فمحمد العمري ينبه إلى إشكالية هذا المصطلح ومفهومه، إذ نجد مصطلح الصورة بمفهومين، وتبعا لذلك يميز في حديثه عن الصورة بين نوعين قائلا: "سنحاول محورة حديثنا حول مفهومي image التي نترجمها مؤقتا ب"الصورة البيانية" و figure التي نقترح لها مؤقتا "الصورة البلاغية"، أو الصورة دون زيادة. وذلك لوضوح المقصود منهما في البلاغة الغربية واضطراب ترجمتها إلى البلاغة العربية".[3] ويتجلى من خلال هذا النص

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:51.
(2) نفسه، ص: 83.
(3) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:202.

مدى الهمّ المفهومي الذي حمله الباحث في تعريفه بالمصطلحات.

أ - الصورة البيانية Image

ويحددها بقوله: "تعني الصورة في هذا الأفق كل ما يترتب عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية مقروءة في ضوء اللسانيات الحديثة. وقد تعدو ذلك إلى كل أساليب الوصف والتشخيص".[1]

ب - الصورة البلاغية Figure

ترتبط الصورة هنا بالدلالة على الجانب التخييلي الواسع، إذ يصبح "كل إجراء مخيل فهو صورة".[2] وبذلك تصبح في مقابل كل إجراء يدل على التداول أي الحجة.

فباستحضار قطبي التخييل والتصديق معا، نجد كلا من الصورة والحجة في قطب من هذين القطبين داخل دائرة الاحتمال، فـ"عند قطب التخييل نفترض درجة صفر من التصديق، أي تستقل "الصورة" figure، أو تكاد، في موقع يكون افتراضيا، وعند قطب التصديق تستقل الحجة argument بنفس التقويم والاعتبار".[3] وعلى الرغم من أن الصورة في قطب التخييل والحجة في قطب التصديق، فهذا لا ينفي احتمال تداخلهما بل تبادل أدوارهما، لتصبح الصورة حين تقوى حجة، وتصبح الحجة صورة حين تضعف.

وفي الأخير تبقى هذه المنظومة المصطلحية قاسما مشتركا بين كل أجناس الخطابات بوصفها بلاغات خاصة. ومفتوحة في الوقت نفسه على كل

(1) نفسه، ص:204.

(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:84.

(3) نفسه، ص:84.

اجتهاد وتطوير بشهادة صاحب المشروع.

المطلب الثاني: مفاهيم بلاغة الجمهور

أول ملاحظة يمكن تقديمها قبل البدء في دراسة مفاهيم هذه البلاغة هو أن تلك المفاهيم حضرت في الكتاب الجماعي لتحليل خطابات متنوعة؛ وهذا ما يجعل التحدي أكبر في معالجتها في خطابات تختلف مع الخطاب الذي أنتجها أول مرة وهو الخطاب السياسي،[1] فتحليل الخطاب السياسي يعدُّه الباحث عماد عبد اللطيف "حقلا معرفيا يهتم بدراسة التواصل السياسي في المجتمع؛ سواء بواسطة النصوص أو الكلام أو الصور أو الإشارات أو الرموز أو غيرها من العلامات. هدف تحليل الخطاب السياسي هو فهم كيف يعمل الخطاب السياسي وكيف ينجز وظائفه التي ترتبط غالبا بالحصول على السلطة وإضفاء الشرعية عليها والاحتفاظ بها. ويتضمن تحليل الخطاب السياسي تحليل بنائه اللغوي والسيميوطيقي، وأدائه وتوزيعه، وتلقيه، وتأثيره، والاستجابة له".[2] فبعد هذا، يبقى السؤال الهاجس هو عن مدى طواعية مفاهيم -تمخضت عن رحم الخطاب السياسي وتربت في كنفه بخصوصياته حتى أصبحت تشكل تعريف توجه بلاغة الجمهور- لخطابات أخرى مغايرة له، في محاولة للتجريب وتوسيع دائرة الاشتغال، ولعمري

(1) نمثل لكتب عماد عبد اللطيف ذات البعد السياسي بـ:(بلاغة الحرية، منشورات دار التنوير/ استراتيجيات الخطاب الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب/ لماذا يصفق المصريون، منشورات دار العين).

(2) عبد اللطيف (عماد): "تحليل الخطاب السياسي في العالم العربي التاريخ والمناهج والآفاق"، ص:111.

إن ذلك لهو التحدي الأكبر لهذا المشروع البلاغي الذي يسعى إلى مجابهة كل الخطابات في مستوى التجريب، مع العلم أنه حدد غايته منذ بدايته على أنه مشروع بلاغي يهدف إلى ترشيد استجابات الجمهور في الأفضية البلاغية سواء الواقعية أو الافتراضية مع التطور التكنولوجي لمقاومة كل خطاب سلطوي وكشف تلاعباته وفضح تضليلاته وتعريتها.

1- مفهوم السلطة

إن استحضار تصنيف عماد عبد اللطيف البلاغة العربية في علاقته بمفهوم السلطة؛ يمكننا من استخلاص نتيجة مفادها أن الرؤية التي أسس عليها مشروعه البلاغي، قائمة على اعتبار أن البلاغة الإنشائية بلاغة سلطة تخدم المتكلم وتجعل المخاطبَ هدفاً مقصودا لها. إن هذه (السلطة) التي "تتحدد بمعيار السيطرة والتحكم"[(1)] كانت السمة البارزة في هذا المشروع؛ لأنها نظرت من الجهة المقابلة جهةِ الجمهور، فـ"بلاغة الجمهور تحاول ارتياد طريق معاكس للدرس البلاغي التقليدي، من زاوية التركيز على استجابات جماهيرية، مجهولة المؤلف متعددة العلامات، متداولة في أفضية عامة مفتوحة، بواسطة مقارنة نقدية تسعى لتعرية التلاعب"،[(2)] هذه النظرة العكسية جعلت بلاغة الجمهور تكشف سلطوية بلاغة المتكلم، حتى إن مفهوم السلطة -في سبيل مقاومتها- شكل تعريف هذا التوجه البلاغي؛ إذ "يقصد ببلاغة الجُمهور البلاغة التي تواجه وتقاوم الأثر البلاغي لبلاغة السلطة"،[(3)] ونحن نعلم أن حضور هذا المفهوم في الخطابات السياسية يكون

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:13.

(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور وتحليل الخطاب السياسي، بحث في البلاغة المهمشة"، ص:200.

(3) صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا"، ص:118.

أوضح مقارنة بخطابات أخرى، وهذا الأمر يُفسَّر بعكوف الباحث عماد عبد اللطيف على الخطاب السياسي في اشتغاله. ونتساءل هنا عن كيفية حضور مفهوم السلطة وتمثله في دراسة الخطابين الديني والسردي؟

لن نتوقف بشكل طويل مع الدراسات التي اشتغلت على الخطاب السياسي للأسباب المذكورة سابقا، فهذه الدراسات تعاملت مع هذا المفهوم بشكل سلس لأنه أُسٌّ بلاغة الجمهور القائمة على تقويضه، فالبحث في هذه البلاغة يستقصي أولا البحث عن مكامن سلطوية خطاب المتكلم، للكشف عنها وفضحها وتعريتها أمام الجمهور، إلا أن هذه السلطة قد تكون "شرعية"، ومن ثم؛ فما الداعي إلى نقدها بهدف تقويضها؟ كحضور مفهوم السلطة في تحليل الخطاب الديني، إن هذا الخطاب قد يكون ذا تضليلات وتلاعبات إذا وُظف لأغراض تخدم سلطة المتكلم وتُقَوِّيها دون التصريح بها؛ فذلك غرض بلاغة الجمهور ومهمتها التي تعهدت بها، إذ في هذا المقام تدافع عن الجمهور بكشف تلاعبات الخطاب وتضليلاته أمامهم ودعوتهم إلى تشكيل استجابات رشيدة؛ فما قيام بلاغة الجمهور إلا لتقويض الخطابات السلطوية.

لقد كان هذا المفهوم حاضرا على مستوى التنظير بشكل كبير، استوعبه الباحثون كلهم، لا تخلو دراسة من دراسات العمل من ذكره نظرا للمكانة التي حظي بها في تشكيل هذا التوجه البلاغي القائم على كشفها بالوقوف عند المفارقات بين الخطابات والواقع، ثم تبرير حضوره على المستوى الإجرائي لتحليل الخطابات وبخاصة تلك التي تنتسب إلى الخطابين الديني والسردي. وما يلحظ عنه أنه كان ملازما للخطاب السياسي بشكل كبير،

ويرجع ذلك إلى تلازم العلاقة بين البلاغة بصفة عامة والخطاب السياسي -وهو تلازم قديم ظهر مع أرسطو- فكلاهما يشغله مدى حضور التأثير والإقناع في الجمهور بالاستحواذ على الفضاء البلاغي وإن من زاويتين مختلفتين. فـ"السياسة والبلاغة والسلطة يشكلون حزمة من المصطلحات وثيقة الارتباط"،[1] وهي تشير إلى النتيجة التي استخلصها أندريو أ. كينغ Andrew.AKing ومفادها أن "العديد من دراسات الخطاب السياسي تنبع من موضوعات السلطة"،[2] لذلك يتجدد سؤال البحث عن مفهوم السلطة في الخطابين الديني والسردي، وعن كيفية حضوره فيهما مع كل خطوة نخطوها.

أ- السلطة والخطاب الديني

اختلفت نظرة الباحثَيْن (حامدة تقبايت وضياء الدين محمد) في حضور مفهوم السلطة على مستوى الخطاب الديني، ففي حين أفرغت الباحثة حامدة مفهوم السلطة من دلالته السياسية القائمة على السيطرة والتحكم في الجمهور وحاولت إعطاءه دلالة مغايرة، قائلة: "ولكن يبقى التساؤل ها هنا فيما ما إذا استطاع خطاب الفتوى انطلاقا من هذه الحصة الإعلامية من أن يفرض سلطة معينة على المتلقي **-والسلطة التي نقصدها هنا ليست بالمفهوم السياسي الداعي إلى السيطرة وإنما بمفهوم التأثير والإقناع لا السيطرة؟**"[3] وقد تكررت العبارة نفسها في موطن آخر تأكيدا منها على شحن مفهوم

(1) كينغ (أندريو أ.) A. King Andrew: "البلاغة والسلطة Rhetoric and power"، ترجمة عبد اللطيف (عماد)، ج3/ ص:320.

(2) نفسه، ج3/ ص:325.

(3) تقبايت (حامدة): "بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني"، ص:186. [التشديد من عندنا].

السلطة بدلالة مغايرة تبتعد ما أمكن عن دلالته السياسية، تقول: "وعليه يتأسس نوع من السلطة -وليست السلطة هنا بالمفهوم السياسي- وهي سلطة تتضمنها الفتوى في حد ذاتها إلى جانب نوع من الطرح التساؤلي الناقد لتلك السلطة – في الفتوى – من قبل المخاطب".[1] وما يلاحظ على الباحثة أن شحنها مفهوم السلطة بدلالة مغايرة لم يتعد (التأثير والإقناع) ولا يمكن بأي حال قبول هذه الدلالة تمييزا للسلطة في الخطاب الديني من غيرها؛ لأن التأثير والإقناع حاضران في أي خطاب آخر بل في كل خطاب مهما كان نوعه، وخاصة حين قبوله في التحليل البلاغي؛ لأن بلاغة الجمهور تأسست أساسا على دراسة الخطابات المتنوعة من هذا الجانب، فـ"كونها خطابات بلاغية يعني أن وظيفتها تتجاوز مجرد الإخبار إلى الإقناع والتأثير"،[2] فهذان الجانبان حاضران ضمنيا في كل خطاب تجابهه بلاغة الجمهور؛ ومن ثم، لا يمكن الاطمئنان إليهما في عملية تحديد مفهوم السلطة في الخطاب الديني. وما نستخلصه من هذه الدراسة هو أن الباحثة تجعل مفهوم السلطة يأخذ دلالة التأثير والإقناع لا يتجاوزهما إلى السيطرة والتحكم.

نجد في المقابل الباحثَ ضياء الدين محمد، يساوي بين الخطاب الديني وباقي الخطابات الأخرى في علاقاتها بمفهوم السلطة محافظا على معناه السياسي الذي بلوره عماد عبد اللطيف القائم على معيار السيطرة والتحكم، فهذا المفهوم قد يحضر في كل خطاب كيفما كان، ومن ذلك الخطاب الديني، وتتجلى سلطوية الخطاب الديني -حسب الباحث- في إمكان قيام هذه

(1) نفسه، ص:194.

(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:8.

السلطة على المستوى التواصلي بين الواعظ والمتدين، فـ"العلاقة بين الواعظ والمتدين تفترض من البداية نمطا سلطويا يقوم على أساس "من يعلم في مقابل من لا يعلم""،[1] وينتج عن هذه العلاقة (السلطوية) "أن المتدين يتطلع إلى ما عند الواعظ من علم، حيث إن موقف الصمت والإنصات موقف اختياري بالنسبة للمتدين."[2] ولكن الأمر المستضمر في هذه العلاقة التواصلية السلطوية في علاقتها ببلاغة الجمهور هو أنها تشي بـ"حدوث ضعف شديد وصل إلى حد الانعدام للحس النقدي في تلقي الخطاب الديني".[3] وهذا يشكل مسعى بلاغة الجمهور في ترشيد مثل هذه الاستجابات حتى تكون ناقدة متيقظة لا تركن إلى أي خطاب إلا بعد ممارسة نقد تُمَيِّز من خلاله خطابا سلطويا يسعى إلى السيطرة عليها من خطاب يسعى إلى تحريرها. وقد ميز الباحث بين نوعين من الخطاب الديني باعتبار السلطة، "النوع الأول يقف فيه الخطاب عند حدود السلطة المقبولة التي يسمح بها المخاطب لإتمام العملية التواصلية بغرض التعلم والانتفاع بها لدى الواعظ. أما النوع الثاني فتتجاوز فيه السلطة حدودها الطبيعية ويصبح الخطاب نسقا من الحيل والخدع الدينية البلاغية بهدف توجيه المخاطب وجهة محددة تكون في الغالب مخالفة لمصالحه، ناهيك بكونها غير دينية في النهاية".[4] لكن إذا كان النوع الثاني واضحا وميدانا لاشتغال بلاغة الجمهور عليه -فالنوع الأول الذي يسمح بسلطة مقبولة- فهذه المقولة تظهر على أنها تلغي إعمال النقد في هذا النوع من الخطاب الديني؛ ولذلك

(1) محمد (ضياء الدين): "بلاغة جمهور الخطاب الديني في الفضاء الافتراضي"، ص:209.
(2) نفسه، ص: نفسها.
(3) نفسه، ص:210.
(4) نفسه، ص: نفسها.

لا نرى فرقا بين النوعين من جهة الجمهور الذي عليه أن يشغل كفاءته النقدية في كل خطاب يتلقاه، فحتى التسليم بهذين النوعين لا يَسْلَمُ إلا بالنقد الذي ميز بينهما. وقد تنبه الباحث في موطن لاحق إلى ذلك أثناء التحليل تحت مفهوم الاستجابة النقدية، إذ يقول: "وأقصد بالاستجابة النقدية: الاستجابة التي تضع الخطاب الديني موضع المساءلة وتستخدم مهارات الجدل والحجاج في مناقشة ما ورد فيه، دون التعرض بالإساءة أو التجريح لمنشئ الخطاب"،[1] وسنفصل ذلك في الجزء المتعلق بمفهوم الاستجابة.

ب - السلطة والخطاب السردي

تعاملت الدراسات المنتمية إلى تحليل الخطاب السياسي مع مفهوم السلطة بشكل سلس مستثمرة إياه في تحليلها بشكل أساس، وذلك لتلازم البلاغة والسياسة منذ القدم كما أسلفنا الذكر، بالإضافة إلى أن مفهوم السلطة نابع أولا من مجابهة بلاغة الجمهور الخطابات السياسية وكشفها عن سلطتها منذ بدايتها مع عماد عبد اللطيف. لذلك تطلعت هذه الدراسات إلى دراسة استجابات الجماهير من جانبها الحجاجي، وتبعا لذلك، لن نستقصي حضور مفهوم السلطة في هذه الدراسات؛ فقد حضر فيها كلها بمعناه الدال على التحكم والسيطرة، ولذلك ننتقل إلى حضوره في خطاب جديد على بلاغة الجمهور وهو الخطاب السردي.

إن اقتحام بلاغة الجمهور دائرة الخطاب السردي، قد تجابهه إشكالات مرتبطة بالخطوط التي سطرتها بلاغة الجمهور لنفسها لتحديد مجال اشتغالها

(1) نفسه، ص:231.

بشكل واضح ومفهوم، من ذلك أن الاستجابات التي تعنى بها هي استجابات جمهور طبيعتها التعددية في فضاء بلاغي تقاوم فيه بلاغة أخرى متمثلة في سلطة خطاب المتكلم» وليس استجابات فردية تكون نظرية التلقي أجدر بدراستها، ومن ثم فما يمكن التساؤل عنه هو كيف يمكن دراسة خطاب سردي في ارتباطه بمفهوم السلطة؟ وكيف تحدد السلطة في الخطاب السردي من وجهة بلاغة الجمهور؟ وما الاستجابات التي يجدر لبلاغة الجمهور دراستها؟

سنحاول رصد علاقة بلاغة الجمهور بالخطاب السردي في إطار مفهوم السلطة، كما سنحاول لاحقا رصد استجابات الجمهور في الخطاب السردي في ضوء مفهوم الاستجابة.

تعد استجابات الجمهور شكلا بلاغيا يجسد طبيعة العلاقة بين سلطة خطاب المتكلم والجمهور من خلال آليتي الإقناع والتأثير، في إطار تفاعلي بين الطرفين، "غير أن هذه الأدوار التي تؤكد درجة من الاستجابة، تؤكد في الوقت نفسه قهر الجمهور؛ لأنه لا يملك القدرة على التغيير فيما يلقى عليه".[1] إذن، مفهوم السلطة في الخطاب السردي يتحدد بكون الجمهور مقهورا ومغلوبا على أمره في تلقي هذا الخطاب، وغير قادر على إحداث التغيير فيه، ولهذا التحديد علاقة بمفهوم السلطة في الخطاب السياسي خاصة، ولكن الاختلاف قائم من جهة أن الجمهور مع بلاغة الجمهور قادر على التغيير والمقاومة باستجابات تنجز ذلك، فكيف يمكن الحديث عن المقاومة والتغيير مع جمهور الخطاب السردي؟

(1) أبو الليل (خالد): "السيرة الهلالية والتلقي الشعبي"، ص:368.

إن الحديث عن مقاومة خطاب المتكلم وإحداث تغيير فيه مع الخطاب السردي، لا يستقيم الحديث عنه إلا مع خطاب قائم على التفاعل المباشر بين الطرفين، لذلك نجد الباحث خالد أبو الليل يختار نصا شعبيا (السيرة الهلالية)؛ لأن الجمهور "مع النص الشعبي يعد أحد وسائل استمرارية تأليفه واستمراريته، فمع كل أداء جماهيري جديد للنص الشعبي نحن أمام عمل إبداعي جديد؛ نظرا لما يضفيه كل من المؤدي والجمهور مع هذا السياق الأدائي الجديد"،[1] ومن ثم فهذا الأداء المتجدد يجعل استجاباته الجماهيرية تؤثر على الراوي مما يجعله يحدث تغييرا في النص ليناسب طبيعة الجمهور الذي يتلقاه.

كما تنبه كذلك الباحث ممدوح النابي إلى هذه السلطة الجماهيرية في إطار الخطاب السردي على مستوى الوسيط الرقمي مشيرا إلى هذه الظاهرة عند الناقد "رونان ماكدونالد" قائلا: "وهي الظاهرة التي استلفتت ناقدا مهما كـ"رونان ماكدونالد" فجاء كتابه "موت الناقد" استجابة لهذا الحراك في العملية الإبداعية".[2] وتتمثل سلطة الخطاب السردي كذلك فيما تؤسس له المؤسسة الأكاديمية من ضوابط على الكتاب الروائيين الالتزام بها حتى يُعترف بهم، وفي حال عدم الالتزام بها تبقى تسمية أدب الظل -مثلا- لصيقة بتلك الأعمال في مقابل الأدب الرفيع، على الرغم مما قد تحققه تلك الروايات من مبيعات وانتشار بين أيدي القراء على المستوى الدولي، هذا الانتشار الذي قد يصبح سلطة تجعل المؤسسة النقدية الأكاديمية تعترف بمثل تلك الأعمال، وخاصة أن هذه السلطة الجماهيرية تلقي ببلاغتها في فضاء رقمي

(1) المرجع نفسه، ص:368.

(2) فراج النابي (ممدوح): "السلطة الخادعة... والوعي الزائف"، ص:418.

له امتداد غير محدود، سلطة تؤثر بشكل كبير على القراء أنفسهم في إقناعهم بقراءة رواية ما أو الإعراض عنها؛ إذ ينتقلون من حيز التلقي إلى الفعل والشروع في القراءة أو تركها إن كانوا قد عقدوا العزم على ذلك. ولكن هذه السلطة الجماهيرية في الخطاب السردي لا يمكن أن تتضمن -بشكل حتمي- قيمة الأفضلية على ما تطرحه المؤسسة النقدية الأكاديمية، فبون شاسع بين الذائقة والمعرفة.[1] وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى خطورة السلطة "الرقمية" التي تصبح في ملك الجمهور المتلقي للأعمال الأدبية، التي من شأنها أن تعلي الذائقة الأدبية على حساب تبريرها علميا،"وهو سبب يفسر الزحف المتوالي لمواقع القراءة التي انتشرت بكثرة، وصار القراء أشبه بنقاد ولكنهم غير رسميين يمارسون سلطة على الكاتب وربما سلطتهم أقوى من الناقد وهو ما جعل الكتاب يسعون دوما إلى استمالة هذا القارئ العادي وجذبه، بوصفه الجمهور الأكبر والأهم بالنسبة للتسويق والتوزيع...".[2] وفي مثل هذه الأحوال تبرز أهمية الحديث عن البعد البيداغوجي الذي تعهدت به بلاغة الجمهور تجاه الجماهير ترشيدا لاستجاباتها.

2- مفهوم الاستجابة

ينعكس بداهة مقارنة المخاطب بين نظرية التلقي النقدية وبلاغة الجمهور البلاغية على الاستجابات كذلك؛ فـ"ـالاستجابات مع بلاغة الجمهور مختلفة تماما، فهي استجابات قد تكون لفظية أو غير لفظية (حركية، وإشارية) وتكون مدونة أوغير مدونة مثل (التصفيق، والهتافات)"،[3] ومن البداهة

(1) نفسه، ص:423، (بتصرف).
(2) نفسه، ص:433.
(3) حاوي (صلاح حسن): "بلاغة الجمهور ونظريات التواصل"، ص:113.

أن حديثنا عن الجمهور لن يستقيم هنا، دون أن نعرج على استجاباته؛ إذ لا يمكن الحديث عن الجمهور بمعزل عن الاستجابة في بلاغة الجمهور، لأن البحث في العلاقة القائمة بين الخطاب والسلطة هو البحث عما يجعل الخطاب يشكل استجابات بعينها دون أخرى وكيف يمكن لهذه الاستجابات أن تؤثر في الخطاب السلطوي في إطار فضاء بلاغي تداولي، وقد شَغَلَ البحثُ عن مرجعيات لهذا المفهوم الباحثَ صلاح حسن حاوي؛ لذلك رجع بمفهوم الاستجابة -في إشارة خاطفة- إلى حقل الإعلام في علاقته بعلم النفس السلوكي حيث الاستجابة تتخذ مفهوما سلبيا تخضع للمثير مع نظرية الرصاصة،"فالفعل هو المنبه الذي ينتجه الإعلام، أما رد الفعل فهو الاستجابة التي ينتجها الجمهور".[1]هذا الجمهور الذي أضحى إيجابيا؛ فقد "صار متغيرا يحدث تأثيرا محدودا على وفق نظرية التأثير المحدود التي ظهرت عام 1940".[2] يمكن ربط الاستجابة بفعل التواصل في مقابل الاتصال مع البلاغة الإنشائية، فهذه البلاغة "اتصالية أكثر منها تواصلية، لأنها تعتمد على نقل المعارف والأخبار والأحداث عبر كلام يمتاز بالإقناع والتأثير".[3] ولعل الوقوف عند كل بلاغة على حدة بمعزل عن الأخرى سيجعلنا أمام بلاغتين اتصاليتين لا تواصليتين حتى مع بلاغة الجمهور، ومن هنا يكون الإبقاء على البلاغة الإنشائية خادما لهذه القضية في عملية دمج بينهما إبان التحليل؛ فبلاغة الجمهور تواصلية لأن "الخطاب المنتَج من المتكلم ويقابله خطاب الاستجابة من المخاطَب

(1) نفسه، ص:100.
(2) نفسه، ص نفسها.
(3) نفسه، ص:101.

يشكل عملية تواصلية".[1]

غير أن عطف بعض المصطلحات على بعضها دون ذكر الفروق بينها من شأنه أن يوقع القارئ في التداخل بينها دون تحديد تمايزاتها، مثلما نقرؤه من قبيل "وهو **بلاغة الجمهور أو استجابات الجماهير**".[2] فالعطف بـ"أو" قد يُفهم منه التخيير بين تسميتين مترادفتين بل متطابقتين، لكن الأمر عكس ذلك فاستجابات الجماهير تشكل فقط جزءا من المادة البلاغية إضافة إلى المقام التواصلي. أي إنها جزء من هذه البلاغة ينضاف إلى أجزاء أخرى تشكلها، ومثل هذا العطف قد يلبس على القارئ الحدود الفاصلة بين المصطلحات والمفاهيم في التصور قبل الإجراء، لأننا ونحن على المستوى التنظيري نقرأ مع الباحث عبد الوهاب صديقي تعريفا لبلاغة الجمهور كالآتي:"لقد وقفنا سابقا عند هذا المفهوم وهو مدار الدراسة كلها؛ أي **بلاغة الجمهور** التي تعلي من شأن المخاطَب، وتمده بآليات تجعله يقاوم بلاغة السلطة السياسية والإعلامية والتعليمية. الخ، بحيث ينتج المخاطب **استجابات** مقاومة لأثرها البلاغي، مدركا لتحيزاتها وتغليطها، ومفارقاتها للواقع"،[3] ولعل القارئ يدرك تماما ما نعنيه بعلاقة العموم والخصوص بين المفهومين من خلال ما ذكر عن هذا التوجه البلاغي في الفصل الأول.

إن مفهوم الاستجابة مرتبط في بلاغة الجمهور بالبعد المادي المرئي الذي ينتجه الجمهور بتعرضه لخطاب ما، فصاحب المشروع يتبنى "مفهوما للاستجابة يقرنها بالأفعال اللفظية وغير اللفظية التي ينتجها المتلقي في سياق

(1) نفسه، ص نفسها.
(2) نفسه، ص:104. [التشديد من عندنا]
(3) صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور.. مفاهيم وقضايا"، ص:124. [التشديد من عندنا]

محدد، استجابة لخطاب آخر".[1] ولكن إذا كانت بلاغة الجمهور تستبعد (الاستجابات) الفردية التأويلية المتعلقة بالنصوص الأدبية مع نظرية التلقي في مقابل الاهتمام بالاستجابات المادية الجماعية، فكيف درس المهتمون ببلاغة الجمهور الخطاب السردي في هذا العمل من زاوية هذه البلاغة؟ وكيف يمكن الحديث عن استجابات جماهيرية لخطابات أدبية؟

يمكن الخروج بداية من هذا الإشكال بالنظر إلى أن استجابات الجماهير بصفة عامة في بلاغة الجمهور هي "المنتج المادي الظاهر أثناء التواصل"[2] وليس التأويل الفردي (= غير الظاهر). وليس الأمر مقصورا على خطاب معين فبلاغة الجمهور تراهن على وجودها من خلال دراسة استجابات الجماهير، لأن "غاية تأسيس حقل معرفي لدراسة استجابات الجمهور من منظور بلاغي هي استكشاف إمكانية تأسيس هوية جديدة للبحث البلاغي، ليس العربي فحسب بل الكوني أيضا. هذه الهوية التي تقوم على خصوصية المادة المدروسة، والوظيفة، والسؤال المعرفي؛ لا تمثل هوية إقصائية لكينونة البلاغة التقليدية، بل هي هوية إضافية".[3]

لا يمكن النظر إلى الخطاب السردي من منظور بلاغة الجمهور، دون الحديث عن أس هذه البلاغة القائم على مفهوم السلطة الذي يبرزه التفاعل بين بلاغتي الجمهور والمتكلم؛ وعن مفهوم الاستجابة بوصفه ردود أفعال لجمهور يجابه خطاب المتكلم؛ ولذلك نجد الباحث خالد أبو الليل يستهل دراسته للخطاب السردي بالفقرة الآتية: "يمكن القول -من

---

(1) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:143.
(2) نفسه، ص:144.
(3) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:27.

منظور علاقات القوة بين القارئ/ الجمهور والنص الأدبي المدون- ((إن هناك علاقة سيطرة أو تبعية أو تكافؤ بين القارئ والنص))؛ ومن ثم فإن دور الجمهور سلبي في تلقي فنون الرواية والشعر والقصة القصيرة عند قراءتها بمعزل عن مؤلفها. رغم وجود النظريات الحديثة التي تعتد بدور القارئ"،[1]فهذه الفقرة تبحث ضمنيا عن تسويغ دراسة الخطاب السردي من زاوية بلاغة الجمهور، ويبدو ذلك جليا من خلال مقترحه للدراسة؛ إذ يقول: " درجة المشاركة الجماهيرية أعلى مع تلقي الفنون التي تعتمد على الأداء والمواجهة المباشرة، من خلال ردود أفعال الجماهير"؛[2] لذلك، فدراسته لأشكال الاستجابة الجماهيرية للسيرة الهلالية، جعله يتناول استجابات متداولة في سياق تواصلي قائم على التفاعل بين المتكلم والجمهور، فالنص المختار يجمع بين بعدين المدون والشفاهي، وهما بعدان يلتقيان في منطقة تلحم بينهما وهي الأداء، وقد ضَمِنَ البعد الشفاهي للباحث الحصول على استجابات متنوعة لنص السيرة الهلالية، أساسها التفاعل بين المدون والشفاهي لهذا النص.

أما عن خصائص استجابات الجماهير، فقد ألمّ الباحث عبد الوهاب صديقي بخصائص استجابات الجمهور المتمثلة في: الآنية، وضعف خضوعها للرقابة، وضخامتها وتعددها، والقابلية لتجهيل مصدرها، وقابليتها للحصر والقياس؛ فرصدها في استجابات الجمهور المغربي لقانون مالية 2016 المغربي، ثم تتبع بنيتها الحجاجية. لقد نظر إلى استجابات بلاغة الجماهير في دراسة بنيتها الحجاجية بالمنظار نفسه الذي نظرت به بلاغة الجمهور إلى خطاب

(1) أبو الليل (خالد): "السيرة الهلالية والتلقي الشعبي"، ص:367.

(2) نفسه، ص نفسها.

بلاغة المتكلم، ومن ثم فهذه الدراسة تخدم البعد البيداغوجي لترشيد استجابات الجمهور، لأنها نقد ذاتي إجرائي على تلك الاستجابات، عبر الفضاء الرقمي، "فمما يكون لزاما التأكيدُ "عليه" أن خطاب الجمهور الرقمي اليوم يحتاج إلى استيفاء شروط التخاطب والمحاججة التي تحتكم للعقل وتعلي من شأن الحوار، حتى لا تستحكم فيه بلاغة الباتوس بدغدغة العواطف والسخرية والتحريض حد العنف"،[1] والملاحظ على دراسة الباحث عبد الوهاب صديقي أنها الدراسة الأكثر توظيفا لمفاهيم بلاغة الجمهور، إذ نجده يوظف الاحتشاد البلاغي، والفضاء البلاغي، والحيز البلاغي، وسرديات الماضي، والتناص، وغيرها من المفاهيم، ويرجع السبب في ذلك إلى جرده مفاهيم بلاغة الجمهور[2]* في شكل معجم لهذه البلاغة. ونشير في هذا السياق إلى أن بلاغة الجمهور في حاجة -فيما بعد- إلى إنشاء معجم خاص بها يُسهل على متتبعيها فهم إطارها النظري برصد خلفيات تلك المفاهيم وما تنطوي عليه بلاغاتها، ولن يتأتى ذلك إلا بعد الاستقرار على تعاريف بلاغية مقبولة لدى الباحثين في هذا الحقل المعرفي الجديد، تُحَوِّلُ المفاهيمَ إلى مصطلحات.

كما تتبعت بسمة عبد العزيز استجابات الجماهير الانتقادية في مظهريها اللفظي والسميائي ونظرت إلى معان ثاوية مستترة وأخرى مباشرة صريحة في تلك الاستجابات، ويتضح جليا اعتمادها آلية التأويل المشروط بعلامات لغوية وغير لغوية وسياق تداولها في استخراج تلك المعاني المستترة في الاستجابات الانتقادية للجماهير، كما تحدثت عن مسألة تطوير الاستجابات البلاغية لمقاومة الخطابات السلطوية.

---

(1) صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور والخطاب السياسي المغربي المعاصر في الفضاء الرقمي"، ص:361.

(2) صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا"، من ص:118 إلى ص:135.

3 – استجابات الجماهير والإيديولوجيا

ارتبط البحث في دراسة استجابات الجماهير وتحليلها بالبعد الإيديولوجي كثيرا، حتى مع الخطاب الديني، وهذا ما استخلصته الباحثة حامدة تقبايت قائلة: "ما يمكن ملاحظته من خلال الخطاب الديني الموجه عبر الفضائيات هو: هيمنة الاتجاه الإيديولوجي في العديد منها، إذ يظهر الخطاب فيها -غالبا- مسيرا وليس حرا فيما يرد فيه، لهذا عكف الجيل الجديد من الجمهور/ المتلقي على الانتقال إلى وجهة أخرى جعلها الجمهور المتلقي متنفسا للتعبير وحرية الرأي، وهذا ما وفرته مواقع الانترنيت"،[1] لذلك نجد التحذير من الاستغلال الإيديولوجي لاستجابات الجماهير التي قد تفقد معه قيمتها بوصفها استجابة تحررية لتسقط في شركه. وهذا ملمح إلى البحث عن سبيل ترشيد الاستجابات البلاغية للجماهير التي ينتظر منها أن تكون واعية ومدركة للفضاء البلاغي موقعة المعركة بين منشئ الخطاب ومستهلكه وهو جانب أدركته بلاغة الجمهور منذ نشأتها بنهج جانب بيداغوجي لهذا الغرض. لقد حضر هذا المسعى في تحليل الباحثة بسمة عبد العزيز، إذ توكل أمر تطوير الاستجابات الجماهيرية إلى الفئة المثقفة، فما تنتجه هذه الفئة "يفترض فيه أن يقدم نموذجا متحررا من قيود السلطة وأصفادها، وأن يطرح خطابا أكثر بلاغة واتساقا من خطابها تجد فيه الجماهير بديلا مناسبا يمكنها من تطوير بلاغتها الخاصة"،[2] نظرا لتمكن هذه الفئة من ناصية اللغة التي توظفها السلطة في خطابها للتلاعب بالجماهير.

(1) تقبايت (حامدة): "بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني"، ص:203.

(2) عبد العزيز (بسمة): "بلاغة المقاومة.. الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية البليغة"، ص:307.

ولا يقتصر الأمر على هذه الناحية، بل لابد أن يمتد هاجس تطوير بلاغة الجمهور "لتشمل توجيه الانتقاد إلى الجماهير نفسها وتشجيعها على ممارسة النقد الذاتي كوسيلة لتحسين أدائها من ناحية، ولكشف مواطن الضعف التي تستغلها السلطة في النفاذ إليها والتلاعب بها من ناحية أخرى"،[1] غير أن هذا الترشيد يجب ألاّ ينسينا الوظيفة النبيلة والأخلاقية لبلاغة الجمهور؛ فتحترز من وقوعها في دائرة المغالطات في إنشاء استجاباتها وهذا ما تنبه إليه الباحث أحمد عبد الحميد؛ لأن "مقاومة السلطة بممارسة تلاعب وتضليل مضاد لا يمكن التعويل عليه في التأسيس لعلاقة صحية مبتغاة بين السلطة والجمهور"،[2] لذلك ينشد الباحثون في استجابات الجماهير البعد البيداغوجي لترشيدها حتى يحافظ الجمهور على سلطته المنتزعة من سلطة المتكلم خاصة في الفضاء الإلكتروني (العالم الافتراضي) الذي يتميز بتجهيل المصدر، فقد رُصدت تجاوزات للجماهير متمثلة في العنف اللفظي مثلا، "ولذا لا بد للمخاطب أن يحافظ على سلطته الجديدة وأن يعمل على زراعة الرقابة الذاتية في خطابه"،[3] ويلاحظ من خلال هاجس ترشيد استجابات الجمهور لدى الباحثين أنه لن يتم ذلك إلا بعد ممارسة نقد ذاتي، تنجزه بلاغة الجمهور على خطابها، بوصفه محطة أولى وضرورة ملحة لقيام باقي الخطوات في بعدها البيداغوجي.

---

(1) نفسه، ص:309.

(2) عبد الحميد عمر (أحمد): "يسقط !بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية"، ص:271.

(3) أبو الحسن (بهاء الدين): "بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي"، ص:318.

خاتمة

إن الحديث عن بلاغة الانتشار في مقابل بلاغة الانحسار، هو حديث عن فكر إبستمولوجي لبلاغة الانحسار يجد تجلياته في الفكر الوضعي الديكارتي المعتمد على البداهة واليقين في العلم، في مقابل بلاغة الانتشار التي تتبناها البلاغة العامة، فهي ضد هذا التفكير، فقد "بنى بيرلمان بلاغته الحجاجية على نقد منهاج ديكارت".[1] وهي بلاغة تنحوها البلاغة العامة، لذلك فمحاولة فهم هذا المشروع البلاغي المجدد لا يستقيم فهمه إلا في إطار هذا الفكر الجديد الذي يرتبط بما بعد الحداثة، وهو ما ينعكس كذلك على نظرته في بناء مفاهيم قادرة على استيعاب مختلف البلاغات الخاصة، مفاهيم تكون مِظلَّة لكل بلاغة خاصة وفي الوقت نفسه تحفظ خصوصياتها التي تنتج عنها مفاهيم خاصة بكل بلاغة على حدة. وقد رأينا الهم الذي يحمله محمد العمري في تأسيس منظومة مصطلحية من خلال دراسة مفاهيمها إبستمولوجيا، ولعل هذا الطابع الإشكالي للمفاهيم هو ما جعل جيل دولوز يحدد وظيفة الفلسفة في عملية إنتاج المفاهيم.

كما رأينا وعي الباحث عماد عبد اللطيف بالسؤال المصطلحي وأهميته في البحث البلاغي، غير أننا لَمَّا نلحظْ حضوره على مستوى التأسيس؛ وهو ما دفعنا إلى محاولة تقديم قراءة مفهومية في الكتاب الجماعي الذي

(1) أبو الحسن (بهاء الدين): "بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي"، ص: 74.

ضم كتابات مجموعة من الباحثين ذوي مشارب مختلفة شملت مجموعة من المفاهيم التي حاولنا تتبعها على المستويين التنظيري والإجرائي داخل ذلك الكتاب الجماعي.

ومن أهم الخلاصات التي استنتجناها من هذه القراءة الكشف عن اتجاهين اثنين في البحث عن مفهوم السلطة من خلال تحليل الخطابات، اتجاه يحافظ عليه بمعناه السياسي الذي عُرف به بداية مع صاحب المشروع، واتجاه يحاول تكييفه والتخفيف من حدته السلطوية خاصة في تحليل الخطاب الديني (مع الباحثة حامدة تقبايت). كما أسفرت عنها استنتاجات أخرى نجملها في النقط الآتية:

- جاءت دراسات الباحثين في مفهوم الجمهور بأبعاد متعددة على المستوى النظري فاقت تمثيلها على المستوى التطبيقي، أو انعدمت فيه كالبحث فيه من الجانب السيكولوجي.
- صعوبة نعت الفرد الواحد أو الفردين من الجمهور -بالاشتقاق- للدلالة على ذلك من لفظ الجمهور.
- ورود الترادف بين الجمهور والمتلقي والمخاطب والمتلقي، أو بالإضافة بين "جمهور المخاطبين" و"جمهور المتلقين"، يدفع إلى تعميق البحث في مفهوم الجمهور ليتميز به من غيره من مرادفاته.
- ارتبطت دراسة استجابات الجماهير برصد بعدها الإديولوجي، والتحذير من انزلاقات الجمهور في استخدام سلطته من البعد الحجاجي المنطقي إلى المغالطة التي قد تصل إلى حد العنف اللفظي.

- ارتبط مفهوم الاستجابة بالبعد الأخلاقي في رسم البعد البيداغوجي لبلاغة الجمهور.
- كانت المادة المشتغل عليها منْ الفضاء الافتراضي، خاصة مواقع التواصل الاجتماعي، باستثناء دراسة خالد أبو الليل للسيرة الهلالية وإن تناولت الاستجابة الإلكترونية؛ لأن هذا الفضاء البلاغي هو المناسب لعيش بلاغة الجمهور وتنفسها فيه بكل حرية، بالإضافة إلى ما توفره هذه الوسائط من مادة كثيرة ومحصية لاستجابات الجمهور تسهل على الباحثين عنها والدارسين لها عملية تحليلها.
- درس الباحثون استجابات الجماهير من الجانب اللغوي إلا الباحثة بسمة عبد العزيز، فقد أضافت التحليل السيميائي وغلّبته في تحليلها.

كما جعلتنا القراءة نقف عند اشتغال الباحثين في دراساتهم في إطار المقام الخارجي للخطابات حتى مع الخطاب السردي، فالبحث من زاوية بلاغة الجمهور في الأعمال الأدبية تكون باعتبار هذا المقام الخارجي وليس الداخلي، وبذلك تتوضح الرؤية العامة التي تنشدها البلاغة العامة في علاقتها بالبلاغات الخاصة.

الفصل الثالث

العلاقة بين البلاغتين..
علاقة العام بالخاص

تمهيد

إذا كان محمد العمري يحاول بناء بلاغة عامة تستوعب كل البلاغات الخاصة على مر تاريخ الفكر البلاغي العربي؛ فإننا ننطلق من هذه الفرضية لرصد بلاغة الجمهور وفق تلك القوانين الكلية التي استخلصها العمري لبناء مشروعه، لننظر في مدى نجاعة أدوات مشروعه وقوانينه في الوصف والتحليل والنقد على مستويي التنظير والإجراء؛ وتبعا لذلك، سندرس المشروعين انطلاقا من العنصر المنسق الذي تقترحه البلاغة العامة ومحاولة رصده في بلاغة الجمهور، وسيشمل ذلك البعد المفهومي للمشروعين كليهما، وتقيدا بتعميق البحث في هذا البعد المفهومي، سنعمق البحث في مفهومي "الجمهور" و"المستمَع" اللذين يرتبطان بطرف واحد في العملية التواصلية وهو المخاطب. ومن ثم سنتتبع في سياق تاريخي حضور مفهوم الجمهور في التراثين البلاغيين اليوناني والعربي وتحديد نظرتهما له، تحكمنا في ذلك زاوية نظر بلاغة الجمهور التي سنوضح في وقفة معها تحديدها لهذا المفهوم والمقارنة بين نظرتها ونظرة التراث البلاغي اليوناني والعربي للمفهوم نفسه، ثم ننتقل بعدها إلى تحديد مفهوم المستمَع Auditoire كما صاغه الفيلسوف شاييم بيرلمان Chaïm perelman، وكيفية توظيفه عند الأستاذ محمد العمري. هذا على مستوى التصور والتنظير، أما على المستوى الإجرائي فسنعمق البحث في إسهام المشروعين البلاغيين بوصفهما مقاربتين بلاغيتين لتحليل الخطابات المتنوعة بغية الاستفادة من مجهودات صاحبي

المشروعين في تطوير البحث البلاغي العربي.

إن الإشكالية التي نطرحها في هذا الفصل تنتمي إلى الإشكالية الكبيرة التي تتمثل في ادعاء البلاغة العامة أنها جنس أعلى تأتي تحته بلاغات خاصة، ومثالنا هنا هو بلاغة الجمهور، فـ"حين نقول: "البلاغة العامة" نعترف ضمنيا بلاغيا ومنطقيا بأن هناك بلاغات خاصة تتفرع عنها"،[1] وهذا إطار لزم التذكير به قبل معالجة ما سلف ذكره داخله. غير أن هناك ملاحظة ينبغي التنبيه إليها، فباسترجاع أطوار البحث بين الفصلين الأول والثاني نكون أمام طريق سلكناها بتتبع تصوُّرَيْ المشروعين بشكل عام، ثم انتقلنا إلى أجزائهما، وقد تجسد ذلك في دراسة مفاهيم المشروعين كليهما متفرقَيْنِ لَمَّا نُحِلْ على العلاقات بين مفاهيمهما إلا لِماماً. أما في هذا الفصل الأخير فسنعكس اتجاه البحث بأن ننتقل من الجزء بدراسة التواشجات بين مفهومين أساسيين ومحوريين (المستمع/ الجمهور) ينتمي كل منهما إلى مشروعه، ثم نستخلص ما يشتركان فيه أو ما يميز أحدهما من الآخر في إطار العنصر المنسق للبلاغات والمتمثل في الاحتمال والتأثير. ثم ننتقل إلى النظر بشكل عام في هذين المشروعين بوصفهما مقاربتين بلاغيتين.

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:76.

المبحث الأول

العلاقة بين المشروعين البلاغيين على مستوى التنظير

(البحث في العنصر المنسق)

يقتضي تعميق البحث في هذا المبحث تعرف مفهومي المستمع والجمهور في مشروعي الباحثين، قبل الحديث عنهما معا بشكل تجاوري من منظور الاحتمال والتأثير غير غافلين أو مغيبين نسقي المشروعين.

المطلب الأول: بين الجمهور والمستمع

1- مفهوم الجمهور عند أفلاطون وأرسطو

لا يذكر اسم أفلاطون في البحث البلاغي إلا واستتبع ذلك ذكر جماعة السفسطائيين، لقد شكل هذان الطرفان "حربا" بين البلاغة[1] والفلسفة، الفلسفة القائمة على البحث في الحقيقة والبلاغة القائمة على الاعتقاد وترسيخه

(1) ينزع مصطلح "بلاغة" في هذا السياق الأفلاطوني نحو الخطابة، ولكن الإبقاء عليه هنا راجع إلى موقفه كذلك من الشعر والشعراء؛ ومن ثم، بلاغة الشعر. يقول عنه عبد اللطيف:"إن دلالة المصطلح [بلاغة] في استخدامه الأفلاطوني أوسع من المفهوم الذي يحتمله ويؤديه مصطلح "الخطابة""، انظر: عبد اللطيف (عماد): "أفلاطون في البلاغة العربية من التهميش إلى الاستعادة"، ص:71.

في نفوس الجمهور،[1] وهو ما يؤكده بيرلمان بقوله: "هاجم أفلاطون -في كثير من محاوراته- السفسطائيين ومعلمي الخطابة؛ لأنهم كانوا أكثر انشغالًا بإرضاء مستمعيهم من تعليمهم الحقيقة، المحبوبة لدى سقراط".[2] لقد تحددت من هنا النظرة السلبية والعدائية للبلاغة مع أفلاطون، لأنها وسيلة تؤثر في الجماهير أو الحشود كما يصفها، ومن ثم نظرة سلبية إلى الجمهور "بدعوى أن العامة فاسدة"،[3] فالحشد لا يعرف الحقيقة والفلاسفة هم من يستطيعون ذلك بحسب رأيه. والبلاغة بوصفها وسيلة فعالة لإقناع الجماهير نشأت في جو من الثقافة الشفوية التي كانت تسود بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد تمازجت بالتأريخ للسفسطة، فهما مترابطتان أيما ارتباط، يجعل الحديث عن إحداهما يستدعي حتما ذكر الأخرى؛ ومما زاد من فعاليتها أنها نشأت في جو ديمقراطي ساعدها على تحقيق غايتها المتمثلة في الإقناع.

لقد مثَّل السفسطائيون، بتوجههم في الفكر السياسي، النظام الديمقراطي أو الشعبي، وفي مقابل ذلك انتصب أفلاطون ذو النشأة الأرستقراطية معاديا توجههم، "ذلك أن الطبقة الشعبية، في رأيه تشكل أكثر الطبقات عددا وأقوى هذه الطبقات عندما تجتمع في مجلسها الشعبي، وهي على استعداد لأن تتبع زعماءها طالما قدموا إليها قسطا مما يستطيعون أن يسلبوه من أملاك الأغنياء".[4] ومرد هذه النظرة العدائية والقدحية هو ظهور السفسطائيين على

(1) انظر أفلاطون: محاورة جورجياس، ص:44.

(2) Perelman Chaïm:L'empire Rhétorique, p:7.

(3) الولي (محمد): "الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين"، ص:40.

(4) عبد الوهاب يحيى (لطفي): اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، ص:256.

مستوى الفكر السياسي في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، من خلال حديثهم عن المواطن وجعله قيمة في مقابل دستور المدينة/ الدولة، فقد كانت "الفكرة التي دعا إليها هؤلاء هي أن الإنسان هو مقياس كل شيء في الوجود. ومن ناحية الفكر السياسي يصبح معنى هذا أن المواطن هو مركز الدولة، ومن ثم فليس هناك نظام سياسي طيب بالطبيعة أو سيئ بالطبيعة، فالمواطن هو الذي يصنع النظام والمواطن هو مقياس الحكم عليه".(1) والأمر في أصله متعلق بالرغبة في امتلاك السلطة "فحينما يكون التسابق مفتوحا بين الفلاسفة والخطباء، لأجل امتلاك مقاليد السلطة، فلا شك أن الخطباء يكونون مرشحين، بسبب نوازعهم الشعبية، ومجاراتهم لأهواء الحشود، أكثر من الفلاسفة، للفوز بمقاعد النفوذ السياسي، خاصة وأن الفلسفة، مجبولة على نفور متأصل من أهواء ومعتقدات العامة"؛(2) ولذلك يتضح أن هذا النقد الأفلاطوني العنيف له علاقة بالجانب السياسي كما أبرزناه في بداية هذه السطور، فأفلاطون يرى "أن التخلص من الخداع والتضليل اللذين يمارسهما البلاغيون للاستحواذ على السلطة يتحقق عن طريق التخلص من البلاغيين وإحلال الفلسفة محلهم، وهو ما يبدو حلا نخبويا يتسق تماما مع النزوع الأرستقراطي لأفلاطون، لكنه في الوقت ذاته لا يحقق سوى استبدال سلطة بسلطة أخرى، ربما تكون مضطرة بدورها إلى ممارسة خداع وتضليل مماثلين".(3) والتأمل في التعاريف التي قدمها أفلاطون للبلاغة (الخطابة) تبرز تلك النظرة السلبية للجمهور الذي يتلقى

(1) نفسه، ص:250.
(2) الولي (محمد): "الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين"، ص:38.
(3) عبد اللطيف (عماد): "موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي "جورجياس و"فيدروس"، ص:237.

خطاباتها، من ذلك قوله: "فن الخطابة بأكمله هو فن قيادة النفوس بواسطة الأحاديث".[1] وكما يقول عنها على لسان جورجياس: هي "القدرة على إقناع المرء بواسطة الحديث".[2] وبذلك فنظرة أفلاطون للجمهور قدحية تنفي عنه الكفاءة النقدية وتجعله فريسة سهلة في أيدي الخطباء المفوهين. غير أن موقف أفلاطون من البلاغة لم يكن كله سلبيا، فقد كان موجها إلى نوعين من البلاغة، وهما البلاغة السياسية والبلاغة القضائية.[3]

ميز أرسطو في الصراع السابق بين أمرين، فـ"قد أعاد أرسطو الوضع إلى نصابه حيث فرق بين الخطابة والسفسطة من جهة، وبين الخطابة والجدل، من جهة ثانية، معتبرا البلاغة تقنية تقدم الوسائل المناسبة للإقناع في كل حالة على حدة، فهي أشبه بالطب؛ أي أنها لا تقدم الشفاء قطعا وفي جميع الأحوال (كما يزعم السفسطائيون)، بل تقدم وسائل العلاج في كل حالة على حدة"،[4] وقد ارتبط مفهوم الجمهور عند أرسطو بتعريفه الخطابة بوصفه الهدف المنشود من الخطاب، فهي: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحدة من الأمور المفردة"،[5] وقد كانت طبيعة المخاطب الذي يُلقى إليه الخطابُ معيارا عنده في تحديد ثلاثة أنواع من الخطابة، وهي: القضائية والاستشارية والمحفلية، ولكن الغاية واحدة مهما تنوعت طبيعة المخاطب؛ إذ تبقى متمثلة في التأثير فيه وإقناعه. وإقناع المخاطب ليس مرتبطا حتما

(1) أفلاطون: محاورة فايدروس، ص85.
(2) أفلاطون: محاورة جورجياس، ص40.
(3) لمزيد من التوضيح، انظر: عبد اللطيف (عماد): "موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي "جورجياس و"فيدروس"".
(4) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص:23.
(5) أرسطوطاليس: الخطابة، ص9.

بالحجج المنطقية التي تخاطب العقل، فالإقناع[1] يكون إما بالحجج التي يتضمنها الخطاب (اللوغوس Logos) أو بأخلاق الخطيب وهيئته (الإيتوس Ethos) أو بالأهواء التي يسعى الخطيب إلى إثارتها في المتلقي (الباتوس Pathos)، أي ما يتعلق بالجانب العاطفي والوجداني.

غير أن استحضار القسم الثاني في البلاغة الأرسطية الذي يقابل الخطابية،[2] وهو الشعرية، يجعل الأمر أكثر خصوصية حين الحديث عن المخاطب في هذا القسم. فإذا كان الأمر متعلقا بمخاطب معين في الخطابة، فكيف يمكن الحديث عن مخاطب في الشعر؟ وهل يمكن أن نفهم قصد الشاعر بما نفهم به قصد الخطيب؟ هل يتساويان في الأمر؟[3]

مما سبق، يتبين أن أرسطو مثله مثل أفلاطون؛ فكلاهما ينظران من جهة كيفية التأثير في المخاطب، وقد خلص عماد عبد اللطيف بعد تتبعه مظاهرَ اهتمام كل من أفلاطون وأرسطو بالجمهور إلى أنهما لم يعنيا "بأشكال التفاعل التي يمكن أن تنشأ بين المتكلم والجمهور"،[4] وبذلك تفترق عنهما بلاغة الجمهور في كونها "معنية بما ينتجه الجمهور من استجابات لغوية وغير لغوية، ولم تكن هذه الاستجابات موضع أي فحص أو اهتمام من قبل

---

(1) ميز أرسطو بين في وسائل الإقناع بين غير الصناعية (مثل، الشهود، والاعترافات، والتعذيب...)، والصناعية التي ذكرت أعلاه.

(2) الخطابية: من اقتراح محمد العمري -قياسا على وزن الشعرية عند أرسطو- هي العلم الذي يدرس الخطاب الإقناعي، ومن ثم تمييزها من "الخطابة" التي تعني الخطبة التي يلقيها الخطيب في مقام ما. (انظر ص13 من كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، للعمري (محمد).

(3) لمزيد من التفصيل، يرجع إلى مفهوم "المقام" في المطلب الأول من المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا البحث.

(4) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:159.

أفلاطون أو أرسطو"،[1] وهذا ما سنوضحه في ما يأتي.

2 – مفهوم الجمهور عند عماد عبد اللطيف

عالجنا في الفصل الأول التّصور الإبستمولوجي لمفهوم الجمهور من زاوية بلاغة الجمهور، وسنكتفي هنا بما يغني البحث ويثمر النقاش العميق.

يبقى مفهوم السلطة حاسما في تحديد مفهوم الجمهور في هذا التوجه البلاغي الجديد، يُضاف إليه مفهوم الاستجابة وهو مدار اشتغال هذه البلاغة سواء في البعد الأكاديمي أو البيداغوجي، ولا بد من الإشارة إلى أن البحث في مفهوم الجمهور يجب ألا يذهب بنا إلى التأصيل له -ونحن نحدد جوهره البلاغي ضمن هذا التوجه البلاغي- في حقول معرفية أخرى غير ذات طبيعة بلاغية صرفة، كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من الدراسات التي اهتمت بهذا المفهوم؛ لأن مثل هذا البحث المتعمق في رصد جذور هذا المفهوم، سَيُغيِّب لا محالة جوهره البلاغي، وطبعا هو بيت القصيد في المشروع البلاغي برمته؛ ولذلك فبحث هذا المفهوم في حقول معرفية أخرى يشكل فيها حضورُه أساسا بارزا، يجب أن يبقى من زاوية المقارنة أو من جانب القدرة على الإفادة منها، مثل دراسات التواصل التي تُعَدُّ "أكثر الحقول المعرفية تماسا مع مشروع بلاغة الجمهور".[2]

قد لا نستطيع وضع تخوم لهذا المفهوم بين هذه الحقول المعرفية، ولسنا مطالبين بذلك، غير أن للبحث العلمي أدبيات تلزمنا، في هذا السياق، بتحديد الجوهر البلاغي لمفهوم الجمهور في إطار التصور الذي يؤطر هذا

(1) نفسه، ص: نفسها.
(2) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:174.

المشروع البلاغي. وهذا طبعا من إشكالات المصطلح البلاغي، لأن التداخل بين الحقول المعرفية مع البلاغة؛ إذ "تهتم هذه العلوم الحافة بالبلاغة بتنمية الأبعاد الإقناعية أو المعرفية الموجودة في الآلية البلاغية، فيعود ذلك على البلاغة بالنفع ما كانت قادرة على هضمه وتحويله، وبالتشويش والإفقار ما كانت عاجزة عن ذلك؛ حيث تدمجه، على علاته، بمفاهيمه ومصطلحاته، فيسوء هضمها، وتعتل صحتها".[1] وعلى الرغم من أن موضوع الجمهور مشترك بين عدة حقول معرفية إلا أن مفهومه يختلف بينها، فمثلا، وإن كانت "بحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل تقدم إسهامات شديدة الأهمية في بلاغة الجمهور"[2] إلا أن لمصطلح الجمهور مفهومين مختلفين بين هذين الحقلين المعرفيين، فـ"أكثر دراسات بحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل حفزّتها، وموّلتها، ووجهتها كيانات اقتصادية وسياسية، تسعى للسيطرة على الجمهور وتوظيفه لخدمة مصالحها"،[3] وهذا طبعا يتعارض مع مفهومه في بلاغة الجمهور التي هي:"مشروع أسس لوأد الخطابات السلطوية"،[4] وهذا التعريف يطابق عنوان المقال التأسيسي لهذه البلاغة وهو (بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته)، إذ يلخص كذلك مسار الفكر البلاغي العربي كله في ثلاثة إبدالات معرفية، مُفردا الحديث عن إبدال البلاغة الإنشائية كما مر بنا سابقا، نظرا للغتها المستخدمة في الحياة اليومية لتحقيق الإقناع والتأثير، إبدال يهتم بالمتكلم الذي يهدف إلى السيطرة على المخاطب من خلال التأثير

(1) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص92.
(2) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:150.
(3) نفسه، ص:151.
(4) صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا"، ص:120.

فيه وإقناعه. وإن بدا في الظاهر أن الاهتمام يرتكز على المخاطب، فذلك ينطوي ضمنيا على سلطة تروم تشكيل استجابات معينة في المخاطب/ الجمهور، ثم مقترحا إبدالا يهتم بالمخاطب/ الجمهور، يحيل على نضال بلاغي ومقاومة لتلك البلاغة السلطوية. وهذا الإبدال بُني بهدف تجاوز عائق إبستمولوجي يعانيه الفكر البلاغي العربي المعاصر،"يتجاوز مشكلات التوجهات القائمة والمتمثلة بشكل أساسي في عدم اكتراثها بالخطابات البلاغية في الحياة اليومية أو تحولها إلى ممارسة سلطوية تعزز من سيطرة المتكلم وهيمنته على المخاطب".[1]

تقتصر بلاغة الجمهور في دراستها على الاستجابات التي يصدرها الجمهور، ومن ثم تتحدد طبيعة الجمهور في هذه البلاغة، وهو جمهور مادي ملموس يصدر استجابات متنوعة، وتتراوح بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي. وارتباطا بهذه الاستجابات يمكننا تفسير انتقال عماد عبد اللطيف في التأسيس لمشروعه البلاغي من مصطلح (المخاطب) إلى مصطلح (الجمهور)؛ فالمخاطب حضر بداية في مقابلته مفهوم المتكلم، ولذلك نلحظ في بداية التأسيس للمشروع تلازم هاتين الثنائيتين (المتكلم/ المخاطب)، وهو أمر بدهي في التعريف بتوجه جديد، ولكن الاستعاضة عنه بمفهوم الجمهور، تُفسر بأنّ تبني هذا المصطلح ينطوي على مفهوم محدد يغاير مفهوم المخاطب، وسنعمد إلى تبيين الفرق بينهما. وأول فرق جوهري بينهما هو أن المخاطب يحيل على استجابات تتداول في أفضية فردية أو بين شخصية،

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:16.

بينما يحيل الجمهور على استجابات تتداول في أفضية عمومية.[1]

إن مفهوم الاستجابة وطبيعتها ومقام تداولها، هو ما يفسر الانتقال من استخدام مصطلح المخاطب إلى مصطلح الجمهور، فأبرز ما يمكن تسجيله هو أن العدد يشكل فرقا حاسما في تبني مفهوم الجمهور بدل المخاطب، فالجمهور يحيل على تجمع غفير، ولكن هذا الجمع قد يكون متفرقا في الواقع مجتمعا أمام شاشات الحواسيب ينتج استجابات آنية لحظة إلقاء خطاب ما أو في لحظة تلي إلقاءه، فإلقاء خطبة على وسيط اليوتوب مثلا، تجعل متتبعين متفرقين في المكان يجتمعون في زمن واحد كلٌ يعبّر عن استجابته، بين تعليق أو استحسان أو استهجان...الخ، فمعنى هذه الفردية "يمثل مزيجا غير مسبوق من الجمهور- الفرد"؛[2] ولهذه الخصوصية حضور في تحديد مفهوم الجمهور، يقول عنه الباحث: "المفهوم الذي نستعمله للجمهور؛ والذي نقصد به كل من يتلقى خطابا عموميا، سواء في فضاء إنتاجه الفعلي أو عبر وسيط"؛[3] ومن ثم، فطبيعة التواصل العمومي هي من حتّمت استخدام مصطلح الجمهور بدل مصطلح المخاطب.

يمكن إجمال هذا الانتقال بكون أن الاستجابات التي ينتجها (المخاطب) والتي يدرسها هذا التوجه البلاغي الجديد، هي استجابات جماعية ينتجها (جمهور) وليست فردية، ويتضح ذلك جليا من خلال الدراسة التطبيقية

(1) تحدث الباحث عن استجابات الأفراد في التراث البلاغي العربي، وقد حصرها في خمسة أساليب بلاغية عنيت بالمخاطب، هي: أسلوب الحكيم، والأجوبة المفحمة، والقول بالموجب، ومجاراة الخصم، وأسلوب السؤال والجواب، عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص: 18-25.

(2) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص41.

(3) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:13.

التي قام بها الباحث عن ظاهرة التصفيق (2009) بوصفها استجابة يمكن مقاربتها بلاغيا؛ غير أن الأمر لا يلقى القبول إذا لم نضع في أذهاننا الفكرة التي قلنا بها سابقا، وهي أن استخدام مصطلح المخاطب كان إجرائيا جاء في مقابل (المتكلم)، وهذا التقابل يؤرخ لمرحلة التأسيس ووضع القدم الأولى في أرض أُنُف، لتتلوَها مرحلة التدليل على ذلك مع الدراسة الموسعة والفريدة، وهي ظاهرة التصفيق، لا سيما أن الإيمان بالدور الذي يلعبه الجمهور كان حاضرا عند الباحث منذ البداية، وهو ما شكل الحافز على تأسيس التوجه بأكمله.

لم يعد ممكنا الاقتصار على الفضاء العمومي مع شكل واحد من أشكال الخطابات التفاعلية (السياسي)، في إطار انفتاح بلاغة الجمهور على أفضية أخرى تطويرا لمساحتها البحثية، وهذا ما نلحظه في قول صاحب المشروع نفسه من خلال البحث عن استجابات قراء الأدب: "يمكن للباحث في إطار بلاغة الجمهور أن يدرس استجابات قراء الأدب **في الفضاء الورقي**"،[1] فاستحضار قول آخر له في المقال نفسه: "تعنى بلاغة الجمهور بدراسة استجابات الجمهور **في الفضاءات العمومية**"،[2] لا يتحول الأمر إلى لَبس بقدر ما يعبر عن فتح آفاق لبلاغة الجمهور فيما يتعلق بطبيعة مادتها الجماهيرية، والكتاب الجماعي لبلاغة الجمهور،[3] يؤكد هذا الرأي، إذ دُرست في جانبه التطبيقي ثلاثة خطابات هي: الخطاب الديني، والخطاب السياسي، والخطاب

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:146. [التشديد من عندنا]

(2) نفسه، ص:141. [التشديد من عندنا]

(3) بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم الدكتورين: حاوي (صلاح حسن) وصديقي (عبد الوهاب).

السردي، من زاوية بلاغة الجمهور في إطار فضاء تواصلي عمومي، إذ لم يعد الأمر مقتصرا على الخطاب السياسي.

إن هذا الانتقال من المخاطب إلى الجمهور، كانت له تبعاته خاصة فيما يتعلق بجانب الاشتقاق، فما يتيحه لفظ المخاطب من تصريفات تدل على المثنى والجمع (مُخَاطَبان ومُخَاطَبُونَ...)، لا يؤديه لفظ الجمهور، فهذا اللفظ اسمُ جمعٍ، لا واحد له من لفظه، وبذلك فدارس استجابات الجماهير من مقاربة بلاغة الجمهور، قد يضطر للمزاوجة في لغته بين المخاطب أو المتلقي مع الجمهور في الدلالة على الإفراد والتثنية، وهذا من شأنه أن يُحدث لَبْسا وغموضا لا يخفيان. وهو ما لاحظناه في الجانب التطبيقي من الكتاب الجماعي لبلاغة الجمهور، إذ نجد الباحثِين أحيانا مضطرين تحت الإكراه اللغوي الذي يهم الجانب الصرفي والاشتقاقي يرادفون مصطلح الجمهور مجموعةً من المصطلحات الأخرى التي تفارقه في المفهوم، كالمخاطب والمتلقي، بل لحظناه كذلك في كتابات صاحب المشروع نفسه.[1]

وارتباطا بإطار البحث الذي يسعى كذلك لمقاربة مفهوم المستمَع Auditoire عند بيرلمان perelman، الذي وظفه الأستاذ محمد العمري في مشروعه حول البلاغة العامة، قد نكون أمام تعارض بين هذين المفهومين، خاصة أن نظرية الحجاج عند بيرلمان نَحَتْ نحو المستمَع الكوني

(1) استخدم عماد عبد اللطيف للدلالة على المفرد عبارة "فرد من الجمهور" في تحليلاته في كتابه: لماذا يصفق المصريون؟، ثم استخدم عبارة "(واحد من) جمهور"، في مقاله: "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي..ملاحظات منهجية"، ص:13.

Auditoire universel[1]، وهو مُتلقٍ يعيش في ذهن المُحاجج وليس مرئيا. فما أوجه التمايز بينهما وهل هناك عناصر مشتركة بين هذين المفهومين؟

3- مفهوم "المُسْتَمَع" من بيرلمان إلى "البلاغة العامة"

ربطت نظرية الحجاج مع بيرلمان الصلة بالبلاغة الأرسطية في جانبها الحجاجي محدثة قطيعة مع مفهوم العقلانية الديكارتية؛ وذلك تبعا لمجال الحجاج، فنحن كما يقول بيرلمان لا نحاجج فيما هو بدهي؛[2] لأن مجال الحجاج هو الاحتمال حيث لا تنفع القوانين الحسابية الصارمة.

وهذا التوجه الحجاجي في البلاغة عند شاييم بيرلمان مستلهَم من البلاغة الغربية التقليدية، فقد قال في مقدمة كتابه الشهير "مصنف في الحجاج: الخطابية الجديدة": "كان موضوع خطابة القدماء، قبل كل شيء، هو فن الكلام أمام الجمهور قصد إقناعه: هي إذن تتعلق باستخدام اللغة المنطوقة للخطاب أمام حشد مجتمع في مكان عمومي بهدف جعله ينخرط في أطروحة تقدم له".[3] وقد كان دَافِع شاييم بيرلمان في هذا التوجه الحجاجي -وهو أستاذ الفلسفة والمنطق والميتافزيقا والأخلاق- البحث عن منطق للقيم (valeurs)؛ ومن ثم فقد وجد البلاغة الأرسطية قد عالجت القضية، فعاد إليها مطورا إياها خاصة بعدما التصقت في الأذهان كلمة بلاغة بالمحسنات والأسلوب، على الرغم من اقتصار معالجته على الوسائل الحجاجية التي تجعل المنشئ يُقْنِعُ مُستمَعه أو يُيَقِّنُه (التيقين) داخل المكتوب.

(1) اعتمدنا ترجمة الأستاذ العمري، أما الدكتور عماد عبد اللطيف فيترجمه بالجمهور الكلي Universel Audience.

(2) Perelman Chaïm et olbrechts-tyteca, Traité de l'argumentation, La nouvelle rhétorique, p:1.

(3) Perelman Chaïm et olbrechts-tyteca, Traité de l'argumentation, p:7.

يحضر مفهوم Auditoire عند بيرلمان حين حديثه داخل نظريته الحجاجية عن مفهومين أساسين هما: الإقناع Persuasion والتَيْقِين Conviction،[1] غير أن حضوره يشكل عمدة في نظريته ما دام هدف الحجاج هودفع المستمَع إلى الانخراط في دعوى المحاجج،[2] لقد ارتبط هذان المفهومان بنوعي المستمَع اللذين ميز بينهما بيرلمان، وهما:

- المستمع الخاص particulier Auditoire؛
- المستمع الكوني Auditoire universel ويضم كذلك ما يسميه بيرلمان نفسُه مستمع النخبة Auditoire d'élite[3] فالمستمَع الخاص مرتبط بفعل الإقناع، أما المستمَع الكوني فمرتبط بالتيقين، والفرق بينهما في طبيعة الحجج التي يستخدمها المحاجج تبعا لنوع المستمَع، فإذا كان المستمَع خاصا حُشِدت له مجموعة من الحجج التي تروم الجانب الوجداني والعاطفي على حساب العقل، أما إذا كان كونيا فإن الحجج الموجهة إليه تروم العقل والمنطق وهو مرتبط بالخطاب الفلسفي، ويقصد به كل أولئك الذين يستمعون وهم ذوو كفاءة لتتبع الحجة.[4] وهذا الأمر يدفعنا إلى الحديث عن طبيعة هذين المستمعين.[5]

---

(1) هذه الترجمة من اقتراح بنوهاشم (الحسين)، انظر كتابه: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص:15-25.
(2) Perelman Chaïm et olbrechts-tyteca, Traité de l'argumentation, p:18.
(3) Bouchard, G: "Le recours à l'auditoire universel implique-t-il une pétition de principe?", p:167.
(4) Perelman Chaïm, L'empire Rhétorique, p:30.
(5) Ibid, p:31.

ارتبط بحث طبيعة المستمَع في المجال البلاغي بأربعة جوانب غامضة فيه تتعلق بـ:

1 - وجوده المادي الفيزيقي، فقد يُوسّع مفهومه في هذا الجانب ليشمل مستمعا في الخطاب الكتابي بدل الشفوي.

2 - عدد أفراده، فالسؤال يتعلق بعدد المستمعين الذين يحددون هذا المفهوم.

3 - تركيبته من حيث اختلاف المستمعين من جوانب عدة كالجانب الإيديولوجي.

4 - العلاقة بين المستمع الخاص والمستمع الكوني، أو بمعنى أدق كيفية الانتقال من الإقناع إلى التيقين.

تشكل طبيعة المستمع في نظرية الحجاج أمرا حاسما في توضيح رؤيته البلاغية، خاصة من زاوية بلاغة الجمهور، فالمستمع الكوني الذي تتجه إليه نظرية الحجاج عند بيرلمان، لا يخدم تصور بلاغة الجمهور، لأن طبيعة المستمع الكوني تتحدد من خلال خصائصه بشكل كبير، ونركز هنا على خاصية واحدة تكفي لأن تجعل نظرة بلاغة الجمهور تختلف كليا عن نظرة بيرلمان لهذا المستمع.

إن الخاصية التي نقصدها هي ما يتعلق بالوجود الفعلي للمستمع، فالمستمع الكوني لا وجود له بشكل مادي ملموس إلا في ذهن المحاجج، فهذه "الخاصية الثانية للمُسْتَمَع الكوني مرتبطة بوضعه الأنطولوجي (الوجودي). هذا المستَمع غير معطى حقيقة، وليس واقعا اجتماعيا ملموسا، ولكنه بناء

ذهني للخطيب نفسه"،[1] وهو بذلك عكس المستمع الخاص ذي الوجود المادي في المقام البلاغي؛ ولذلك قال الباحث إدريس جبري في سياق حديثه عن المستمع الخاص لبيرلمان: "وتشكل هذه الفئة من الجمهور موضوعا أثيرا لما سماه عماد عبد اللطيف بـ"بلاغة الجمهور"، خاصة في تجاوبها مع الخطابات الأصلية ومختلف استجاباتها ووقعها عليها، بشكل مباشر أو غير مباشر. وهي إحدى إمارات البلاغة العامة".[2]

إن اهتمام بيرلمان بالمستمع الكوني على حساب المستمع الخاص، نابع من كون نظريته الحجاجية تركز على الجانب المكتوب فقط بدل الشفوي؛ ومن ثم، تركيزه على الحجج التي يتضمنها الخطاب Logos، وإهمال الحجج التي ترتبط بالإيتوس Ethos والباتوس Pathos كما عند أرسطو، يقول حاتم عبيد في هذا الصدد: "فالفرق واضح بين خطابة أرسطية يتسع نطاق الحجج فيها ليشمل جانبا في الإنسان يقع خارج دائرة العقل نبّه أرسطو الخطباء إلى أهميته في استمالة الجمهور والفوز بثقتهم وبين "خطابة جديدة" لا تعتد إلا بالحجج اللغوية، وتهمل في المقابل ما يكون لصورة المتكلم لدى السامع ولانفعالات الجمهور وعواطفهم من دور في عملتي الإقناع والتأثير".[3] وهذا الاختزال البيرلماني لمصادر الحجج في الخطاب دون الأهواء وصورة الخطيب، هو ما يجعل التعارض قائما بين نظريته حول المستمع الكوني

(1) Bouchard, G: "Le recours à l'auditoire universel implique-t-il une pétition de principe?", p:170.

تتعلق الخاصية الأولى بكون المستمع الكوني يتمتع بكفاءة نقدية، ولذلك يُحتاج في مخاطبته إلى حجج عقلية، ومعالجة المستمع الكوني -حسب الباحث- في هذا التحديد مرتبطة بمفهوم العقل.

(2) جبري (إدريس): "في علاقة البلاغة العامة بالبلاغة الخاصة"، ص:51.

(3) عبيد (حاتم): الباتوس: "من الخطابة إلى تحليل الخطاب"، ج2/ ص750.

وما تدرسه بلاغة الجمهور من استجابات مادية تصدر من جمهور "من لحم ودم". فحتى الانتقال من المستمع الخاص إلى المستمع الكوني، هذا الانتقال الذي سماه أوليفي روبول مبدأ "التجاوز" قائلا: "الواقع أن المستمع الكوني قد لا يعني التعتيم بل المثالية، أي فكرة منظمة بالمعنى الكانطي. إني أعلم أني أتعامل مع مستمع خاص غير أني أوجه إليه خطابا يحاول تجاوزه، خطابا يتجاوزه إلى محافل أخرى ممكنة دون تحديد، مع ذلك، لعدد هذه المحافل وطبيعتها. وعندئذ لا يبقى المستمع الكوني مجرد خدعة، بل يصير مبدأ للتجاوز، ويمكن بذلك أن نتحدث عن استعمال قويم للالتفات"،[1] لا يخدم رؤية الأساس الابستمولوجي الذي تُبنى عليه بلاغة الجمهور متمثلا في التعامل مع استجابات الجمهور في فضاء تواصلي مرئي.

إن بلاغة الجمهور تختلف عن بلاغة المتكلم (الإنشائية) في كونها بلاغة "تحاول ارتياد طريق معاكس للدرس البلاغي التقليدي، من زاوية التركيز على استجابات جماهيرية، مجهولة المؤلف متعددة العلامات، متداولة في فضاءات عامة مفتوحة، بواسطة مقارنة نقدية تسعى لتعرية التلاعب"؛[2] ومن ثم، تتوضح الرؤية أكثر، فحتى قبول أن الخطيب قبل أن يلقي خطبة على جمهور ملموس عياني، فإنه يشكله في ذهنه ويتخيله ما أمكن وفق ما يحتمل أن يكون عليه في الواقع، وما يشكل رغباته وتطلعاته لحشد مجموعة من الحجج التي يرجى منها التأثير فيه وإقناعه، تبدأ بالانطلاق من مقدمات (Prémisses) مسلم بها لدى المخاطب، وهو ما عبر عنه الباحث حسن

(1) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:183-184.
(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور وتحليل الخطاب السياسي، بحث في البلاغة المهمشة"، ص:200.

المودن بقوله: "لا يعني المخاطب المُتخيَّل أن المخاطب من صنع الخيال، بل يعني أن المتكلم قبل أن يواجه المخاطب الواقعي بخطابه يكون قد استطاع أن يكوّن عن المخاطب الواقعي تمثلا ذهنيا وصورة متخيلة انطلاقا من معطيات سياقية تخص المخاطب الفعلي"،[1] وكلما صغرت الفجوة بين صورة الجمهور في ذهن منشئ الخطاب وواقع الجمهور الفعلي كان الحجاج ذا تأثير كبير فيه، على الرغم من ذلك، يبقى الأمر مقصورا على حضور الجمهور على مستوى الخطاب وليس على مستوى الحضور المادي الفعلي. ونخلص إلى أن معالجة الجمهور في توجه "بلاغة الجمهور" مغايرة تماما لمعالجته من جانب بلاغة المتكلم، فتلك النظرة العكسية هي الفيصل والمحدد في زاوية رؤية الجمهور، لأنه بحسبها جمهور مؤثر في خطاب المتكلم إن أحسن استخدام استجاباته.

أشرنا سابقا إلى أن السؤال المصطلحي يحضر بشكل أساس عند كل من محمد العمري، وإن متصفح كتبه سيجد هذا الأمر حاضرا بشكل كبير في كل كتبه المؤسسة لمشروعه، فهو لا يتقدم خطوة حتى يُفَصّل في كل مفهوم يعترض سبيله غير مبالٍ بتعريفه المعجمي بشكل كبير، آخذا بتحولات المفاهيم داخل النسق الواحد أو تنقلاتها عبر أنساق قد تكون متباينة تجمعها أرض البلاغة. ويبقى مفهوم "البلاغة" أهم تلك المفاهيم التي شغلت باله وقضت مضجعه، فتتبع حضورها في الثقافتين الغربية والعربية، وفي إطار هذا الهمّ المصطلحي يبرز كذلك مصطلح "المستمَع"، فما مفهومه؟ وما موقعه داخل مشروع العمري؟

(1) المودن (حسن): "دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي"، ج1/ ص:425.

يقول محمد العمري في هذا الصدد: ""مُسْتَمَعٌ" ترجمة لكلمة auditoire. وقد كنا ترجمناها في البداية بكلمة "مَحْفَل"، ثم رجحنا كلمة مستَمع لجمعها -بصيغتها الصرفية ونوع صوامتها- بين السمع والمكان (الظرف)، وما يحدث في المكان يستتبع الزمن. وهي بذلك بديل لكلمة "مقام" التي استعملناها في أعمال سابقة"،[1] ومسايرة لتطور مشروعه على البعد الزمني، فإن الأستاذ يفصل في الأمر تفصيلا بين المستمع والمقام قائلا: "...مستمع، وهو يخصص العموم الذي يطبع مصطلح مقام دون أن يحل محله. المستمع هو محفل فيه مستمعون معينون ضمن شروط زمانية ومكانية محددة. إذا قلنا بأن القلب النابض للخطاب التداولي هو المقام فإن قلب هذا القلب هو المستمع، المقام أوسع".[2] وبعد هذا التفصيل بين المستمع والمقام، نجد الأستاذ يكتفي بتعريف المستمع في كتابه المحاضرة والمناظرة كالآتي: "المستمع هو المتلقي/ المتلقون في زمان ومكان محددين واقعا أو افتراضا"،[3] فالواقعي والمفترض هنا، يحيلان على جناحي البلاغة العامة، أي جناحي التخييل والتداول، و"معنى ذلك استيعاب الخطاب التداولي الحجاجي كله من الإشهار إلى المناظرات وكل أشكال الحوار والمناقشات من جهة، وكل صور التعبير الأدبي بالمعنى الحصري للأدبية بما فيها الشعر والسرد وما تفرع عنهما، أو بني عليهما. ثم تتبع توظيف هاتين الآليتين الخطابيتين في كل المجالات التي تُثبت فيه حضورهما قدرا من الحضور".[4] فالمستمع يسهل تحديده في الخطاب التداولي مقارنة بالمستمع في الخطاب التخييلي، وتحديد كيفية

(1) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، هامش 1، ص220.

(2) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:87.

(3) نفسه، ص:49.

(4) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، ص:21.

الأثر بين المنشئ والمستمع في منطقة التخييل الشعري أصعب.

بعد هذه الوقفة السريعة مع مفهوم المستمع البيرلماني عند محمد العمري، وهي وقفة رصدت الجهد الذي بذله الأستاذ العمري في سبيل ترجمة هذا المفهوم، يبقى السؤال الإشكالي، هو: ما موقع مفهوم المستمَع ضمن مشروع الأستاذ العمري؟

والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج عناء يذكر؛ فقد وضح الأستاذ العمري علاقة مفهوم المستمع البيرلماني بمشروعه "البلاغة العامة" قائلا: "تتجه خطابية بيرلمان نحو الجدل وفحص الأطروحات، ونحو المكتوب بدل الشفوي، ونحو **المستمع الكوني**، وتتجه الخطابية البلاغية التي نتبناها، أو نبنيها، نحو الشعري والذاتي، ونحو السفسطة باعتبارها مرضا من أمراض الخطاب، وتعتبره أصلا ومنطلقا"،[1] وبذلك نتعرف المقصود بمفهوم المستمع في هذا المشروع البلاغي، إذ يحدده الباحث بوصفه ينزع نحو المستمع الخاص فهو مجال كشف التأثير في الخطاب التخييلي، كما أنه ينزع نحو كشف التلاعبات والتضليلات التي قد ينطوي عليها الخطاب التداولي الحجاجي للمنشئ الذي يهدف إلى إقناع المستمع، وفي هذا النزوع الثاني يلتقي مشروعا الباحثين في الكشف عما قد ينطوي عليه الخطاب من سفسطة وتضليلات وتلاعبات بالمستمعين.

(1) نفسه، ص: 46 [التشديد من عندنا]

المطلب الثاني: الاحتمال والتأثير بين المشروعين

1 - الاحتمال

عرفنا سابقا أن الاحتمال والتأثير هما العنصران المنسقان اللذان استخلصهما محمد العمري في حديثه عن علاقة البلاغة العامة بالبلاغات الخاصة المتنوعة، ومن البداهة في بداية الحديث عن هذين المشروعين البلاغيين جنبا إلى جنب أن نشير إلى أن بلاغة الجمهور خطاب احتمالي سواء في تنظيرها أو فيما تسعى إليه ببناء عدة بيداغوجية تضعها بين أيدي الجماهير، فبلاغة الجمهور "تتخذ... من طبيعة **الاستجابات البلاغية الفعلية والمحتملة للمخاطب** الذي يتلقى خطابا بلاغيا عاما موضوعا لدراستها"،[1] وتراهن عليه حين تلقّيه أي خطاب سلطوي بـ"نقله من دائرة اليقين إلى دائرة الاحتمال، من دائرة التسليم المطلق إلى دائرة المساءلة، من دائرة حرية التأثير إلى دائرة البحث في الأغراض والمصالح".[2] وهذا التعدد في القواعد التي ستضمها هذه العدة هي احتمالات تفعل بالاختيار بوصفه آلية إجرائية تحقق من الاستجابات المحتملة واحدة أو أكثر بحسب المقام الذي يجمع بين الجمهور والمخاطب. فالاحتمال أساس هذه البلاغة ولذلك فهي لا تدعي امتلاك الحقيقة،[3] كما أنها لا تقصي الخطابات الأخرى لوعيها بنسبية المعرفة البلاغية ونسبية مقاربتها كذلك. لقد أشار الباحث عماد عبد اللطيف إلى ذلك بجعل إحدى وظائف هذه البلاغة هي "تأسيس ثقافة التكذيب"،[4] ويصح القول:

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:23. [التشديد من عندنا]

(2) نفسه، ص:18.

(3) نفسه، ص:19.

(4) نفسه، ص:29.

إن بلاغة الجمهور تَعُدُّ خطابَ المتكلم صدقاً يحتمل الكذب ليس بمعناه الفني والتخييلي فقط، بل حتى بمعناه الأخلاقي الذي يسعى إلى التحكم في الجمهور. وهذا أساس قوي مشترك بين المشروعين البلاغيين فيما يحدد أسسهما الإبستمولوجية، يقول محمد العمري في هذا السياق: "فلو زودتَ خطبتك بما شئت من الحجج المنطقية والواقعية فستظل محتملة قدرا من الاحتمال، لأنها تنشد انخراط الآخر، وتفاعله حسب سلمه القيمي وتراتبية القيم عنده: الحسن والأحسن، والأقل حسنا، النافع والأنفع والأقل نفعا، العادل والأعدل والأقل عدلا. فالاحتمالية موجودة في مستوى البناء ولكنها موجودة أيضا في مستوى المقام"،[1] ونضيف بلغة بلاغة الجمهور: الخطابَ السلطوي وغيرَ السلطوي في مقام تواصلي جماهيري، فمما ينبغي التنبه إليه هو أنه ليست الخطابات كلها خطابات سلطوية تروم السيطرة على الجمهور، إذ لا يمكن الحديث عن تعميم الأمر بجعل كل خطاب بلاغي خطابا سلطويا، وهذا ما تراهن عليه بلاغة الجمهور، وذلك بجعل الجمهور قادرا على التمييز بين "خطاب سلطوي يستهدف السيطرة عليه وخطاب غير سلطوي يستهدف تحريره- يستطيع بواسطة تطوير وتفعيل استجاباته أن يقاوم الخطاب السلطوي"،[2] وليس التمييز سوى الاختيار من المحتمل لرصد سلطوية الخطابات بناء على خلفية معرفية بلاغية سابقة.

إن فعالية الاستجابة وفقا للاحتمال لا نستطيع الحكم على فعاليتها إلا إذا كانت تلك الاستجابات متعددة ومتنوعة وكان للجمهور حرية الاختيار من بينها. غير أن هذا التوجه نحو إعداد عدة بيداغوجية تربوية يفتح

(1) العمري (محمد): المحاضرة والمناظرة، ص:47-48.

(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة المخاطب"، ص:18.

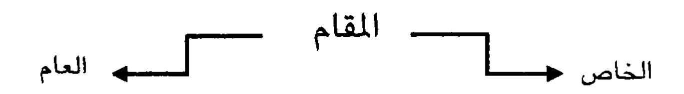
سؤالا كبيرا مفاده: أليس إعداد تلك العدة المتكونة من قواعد ستحوّل أمر الاستجابات من واقع الاختيار وفق ما يستدعيه المقام إلى أمر الاضطرار؟ وبصيغة أخرى من يضمن نجاعة اختيار الاستجابة البليغة؟

وهذا السؤال منبثق من بين القواعد المؤسسة لمشروع بلاغة الجمهور، فهذه البلاغة "لا تقوم... بتلقين "الحقيقة" أو كيفية الوصول إليها؛ نظرا لأنها ببساطة لا تدعي امتلاكها. ولا القدرة على تحديدها"،[1] كما أن له صلة بالقواعد المعيارية التي اكتسبتها بلاغة المتكلم التي انتقدتها بلاغة الجمهور، فالأمر يتعلق بما هو منتقد أصلا، ومن ثم، ينبغي ألا يكون التعامل مع الاستجابات البلاغية بوصفها قواعد معرفية يمكن وضعها في خدمة الجمهور دون الاحتفاظ بطابع الوصفية والتحليل المتجدد الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بالنقد الذاتي الذي توجهه بلاغة الجمهور إلى نفسها فهي "معرضة دوما لأن تتحول إلى خطاب سلطوي إذا ادعت أنها تمتلك "الحقيقة" أو بإقصاءات وتمييزات خطابية أو مادية. ودور النقد الذاتي هو مقاومة تحولها إلى ممارسة سلطوية بذاتها".[2] وما ينبغي الإشارة إليه هو أن بلاغة الجمهور لا يمكنها الاستغناء عن بلاغة المتكلم في عملية التأسيس للعدة البيداغوجية التي تريد وضعها بين يدي الجمهور، كما أن دراستها ينبغي ألاّ تقتصر على الخطابات السلطوية بل لا بد من دراسة الخطابات التحررية قصد المقارنة الجيدة وبغية توضيح الأمر أمام الجمهور المراهن عليه.

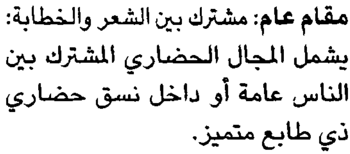
(1) نفسه، ص:31.
(2) نفسه، ص:19.

2- التأثير

يرتبط الحديث عن التأثير بسؤال: من المستهدف بالتأثير؟ وبذلك يبرز مفهوم المقام. وإذا كان منطلقنا هو البلاغة العامة فلابد من ذكر المقام حسب تصورها، لنستخلص أن محمد العمري يميز دائما في حديثه عن المقام بين عدة أنواع، فالمقام عنده "يتسع [...] ليشمل مجموع الشروط الخارجية المحيطة بعملية إنتاج الخطاب شفويا كان أم مكتوبا"،[1] وهو ينقسم إلى قسمين يمكن تمثلهما كما يأتي:[2]



مقام خطابي: يقتصر على مراعاة حال المخاطب في لحظة محددة معلومة سلفا للخطيب.





كما ينقسم المقام إلى داخلي وخارجي، فالداخلي متعلق بما يحققه الناس من علاقات داخل العمل الأدبي أما الخارجي فيرتبط بتداول الخطاب، ومن ثم، تلتقي الخطابة والشعر في هذا المقام الخارجي، فـ"المقام الأدبي

(1) العمري (محمد): "المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي"، ص:122.
(2) حاولنا تحويل فقرتين إلى ترسيمة تيسيرا للاستيعاب، انظر المرجع السابق، ص: نفسها.

الخارجي (أي العلاقة بين الإنتاج ومتلقيه) مشابه للمقام الخطابي، وهذا ما يسمح بدراسة التشابهات".[1]

نفصل الحديث في المقام بهذا الشكل على الرغم من تناوله ضمن مفاهيم البلاغة العامة، لأن الأمر هنا يتعلق بتحديد عملية التأثير في بلاغة الجمهور ضمن مشروع البلاغة العامة، فأين تتجلى مظاهر التأثير مع بلاغة الجمهور؟ وما درجاته؟

حاولنا فيما سبق أعلاه لفت الانتباه إلى تعميم مفهوم المقام ليشمل الشعري والخطابي أي التخييل والتداول، لنكون أمام مرونة في استخدام المقام لرصد تجليات التأثير في مشروع بلاغة الجمهور، ونبدأ بالخطوة الأولى وهي موضعة بلاغة الجمهور ضمن جناح التداول من البلاغة العامة وذلك تبعا لمنطقة بحث هذه البلاغة المحددة في دراسة استجابات الجماهير كما تعرفنا، ولكن هذا التأثير ليس أحاديا مع بلاغة الجمهور، وهذه إضافة تمتاز بها عن البلاغة العامة، فالبلاغة العامة تحاول تبين الأثر بين المنشئ والمستمَع في الخطابين التخييلي والتداولي من جهة منشئ الخطاب. أما بلاغة الجمهور فهي تتحدث عن الأثر بشكل تفاعلي، ومن ثم، فهي تتبع تأثير خطاب المنشئ في الجمهور من خلال الاستجابات التي يصدرها، ولا تقف عند هذا الحد، بل ترصد تأثير خطاب الجمهور في المنشئ وتوليه أهمية كبرى وتحاول الرفع من درجته بكشف التلاعبات التي ينطوي عليها خطاب المنشئ.

ومن هذا المنطلق يمكن تبين قضية في غاية الأهمية تتعلق بنوع الخطبة

(1) العمري (محمد): "المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي"، ص:135.

بمن يتوجه إليهم بها. ونشير تحديدا إلى اختلاف بين الباحثَيْن في قضية تقسيم الخطابة الأرسطية بحسب الجمهور/ المستمَع، فمحمد العمري يحتفل بالتقسيم الثلاثي الأرسطي للخطابة في أول كتاب له بعنوان: "في بلاغة الخطاب الإقناعي"؛[1] إذ طبق فيه نظرية أرسطو في الخطابة على نصوص عربية تنتمي إلى التراث، وهي نصوص في الخطابة العربية في القرن الأول، وأبرز ما يميز هذا التطبيق بعد الحديث عن المقام في الخطابة الأرسطية المتمثل في التقسيم الثلاثي المعروف (القضائية/ الاستشارية/ المحفلية)، والحديث عن المقام في البلاغة العربية من خلال مقولة مراعاة مقتضى الحال تقسيمه الخطابة العربية بناء على المخاطب كما فعل أرسطو، وليس استنادا إلى الموضوع، فتلك المواضيع (السياسية/ الدينية/ الاجتماعية) عادة ما تكون متداخلة بحسب قوله، خاصة أن الإسلام لا يفرق بين الدين والدولة، على سبيل المثال؛ ومن ثم، قسّم الخطابة العربية باعتبار المخاطب مستعينا بالتقسيم الثلاثي لأضرب الخبر (الابتدائي/ الطلبي/ الإنكاري)،[2] بينما نجد عماد عبد اللطيف يَعِيب هذا التقسيم الأرسطي بقوله: "وأظن أن الربط بين نوع الجمهور ونوع الخطاب ينطوي على مخاطر متنوعة؛ ولنتخيل أن سياسيا يخطب في جمع يضم قضاة وسياسيين ومتفرجين عاديين، في ساحة مدينة، هل تكون خطبته سياسية أم قضائية أم محفلية؟

(1) يقول محمد العمري: "تلافيا للخلط استعملنا عبارة: بلاغة الخطاب الإقناعي، عنوانا لأول كتاب صدر لنا في الموضوع، في منتصف الثمانينيات. وهو كتاب: في بلاغة الخطاب الإقناعي. وقد بدا لنا اليوم أن الأجدى اصطلاحا، والمناسب دلالة، استعمال كلمة واحدة هي: الخطابية". هامش ص13 من كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول.

(2) انظر: العمري (محمد): في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية/ الخطابة في القرن الأول نموذجا، منشورات أفريقيا الشرق الفصل الثاني (مقام الخطاب، ص:29-67).

إن طبيعة الجمهور (المتنوع) لا تحسم شيئا، ومن ثم علينا أن نبحث عن سمات أخرى لتحديد الماهية (مثل طبيعة المتكلم، موضوع الخطاب...) ومع ذلك، فإن إشارة أرسطو إلى دور الجمهور في تحديد نوع الخطبة، دالة على دور الجمهور في النظرية البلاغية الكلاسيكية"،[1] غير أن واقع الأمر وهو المقام الذي يحوي المخاطب يحتم على الخطيب الانطلاق منه ما دام ينشد فيه التأثير والإقناع، وليس كل من يحضر في جمع يستمع لخطبة فهو مقصود بالخطاب، فمرجع الأمر هو قصد الخطيب الذي يتحكم فيه المخاطب، يقول بيرلمان: "لا يتشكل المستَمَع بالضرورة من هؤلاء الذين يخاطبهم المتكلم بشكل مباشر صريح"،[2] وقد تنبه الأستاذ العمري لذلك قائلا: "وهناك أيضا تمييز، لا بد منه، بين المستمع والمخاطب (فليس كل مستمِع مخاطبا)"،[3] أَلَمْ يتنبه أرسطو إلى أن توجيه الخطاب إلى القاضي مثلا يسمعه الشهود والحاضرون؟ كما يسمع الشرطي كلام المحامي الموجه إلى القاضي داخل محكمة في عصرنا الحاضر؟ وعلى الرغم من ذلك صنفها ضمن الخطابة القضائية لأن المقصود بالخطاب هو القاضي نفسه الذي سيصدر الحكم لا غيره، وقد تنبه عبد اللطيف، هو كذلك، لقصدية منشئ الخطاب في تحديد نوع الخطبة، إذ يقول متحدثا عن أنواع الجمهور في الخطابة السياسية: "حيث يمكن تقسيمه إلى جمهور مستهدف بالخطبة يسعى المتكلم للتأثير فيه، وجمهور آخر غير مستهدف بها".[4] ومرد هذا الاختلاف بين الباحثَيْن يعود بشكل كبير إلى مرجعية كل منهما في تكوين

---

(1) عبد اللطيف (عماد): "منهجيات دراسة الجمهور"، ص:158.

(2) Perelman Chaïm: L'empire Rhétorique, p:27.

(3) العمري (محمد): "المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي"، ص:122.

(4) عبد اللطيف (عماد): لماذا يصفق المصريون؟، ص:226.

مشروعه البلاغي، فإذا كان الأستاذ العمري يستلهم عنصر المستمَع من خطابية بيرلمان التي تضرب بجذورها في البلاغة الأرسطية، فإن الأستاذ عبد اللطيف بحكم تبنيه مفهوما مغايرا لمن يتلقى الخطاب يستبعد أن تُحدد طبيعة الخطبة به، ولكن قوله عن الجمهور: "فإن الموظف الجالس على أريكة بيته المريحة، يشاهد خطبة، أو حوارا سياسيا على حاسوبه، أو تلفازه، ويقرر أن يكتب تعقيبا على ما شاهده، هو (واحد من) جمهور، مثله مثل من يتلقى هذا الخطاب في قاعة إنتاجه وتداوله"،[1] يجعل الأمر أكثر التباسا، فلا يخفى أن الاستجابة التي أنتجها هذا الموظف هي ما جعله يدخل ضمن دائرة الجمهور، وطبعا هنا، سنتحدث عن مجموعة كبيرة من أفراد يشكلون هذا الجمهور، تختلف سواء في أعمارها، أو توجهاتها، أو جنسها... الخ؛ ومن ثم، لا يمكن تحديد نوع الخطبة بشكل دقيق إلا بمعرفة من يَتوجه إليهم الخطيب بخطابه قصد التأثير فيهم وإقناعهم. أضف إلى ذلك، انتقاد الباحث عبد اللطيف التصور البيرلماني للمستمَع Auditoire خاصة المستمع الكوني.

3- الجمهور والمستمَع في ضوء الاحتمال والتأثير

إن الحديث عن مفهومي الجمهور/ والمستمَع بشكل تجاوري، ليس مجافيا للحقيقة التاريخية البلاغية التي نعيشها الآن في البلاد العربية بين مشروعين بلاغيين ذوي أهمية كبرى؛ لِمَا يسعيان إليه من تجديد المعرفة البلاغية التي تحجرت على مدى عدة قرون، وليست كذلك، مسألة هجرة هذا المفهوم أو الآخر إلى أرض بحثية لا تعرفه؛ لأن المشروعين معا يبحثان في أرض

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:13.

البلاغة، وأي بلاغة؟ البلاغة العربية ومحاولة الاستفادة من المنجز الغربي في تحقيق التجديد المنشود؛ تجديد يطمح إلى جعل البلاغة العربية بلاغةً كونية؛ لكل ذلك فالأمر يتعدى الاهتمام برصد المفهومين وتتبع حضورهما في المشروعين كليهما، بل هو واجب حتمي تجاه البحث البلاغي المعاصر درءا لكل ما من شأنه أن يشوش على المتلقي في قراءة هذه المشاريع البلاغية المجددة، وهذا يأخذنا إلى وظيفة من وظائف المفهوم في تحقيق التواصل سواء بين المنتمين للحقل المعرفي الواحد، أو بين حقلين معرفيين يجمع بينهما الانتماء لأرض البلاغة.

لكن شكل العلاقة بين هذين المفهومين، محدد سلفا بشكل افتراضي، فالبلاغة العامة تدعي (الهيمنة) واتخاذ منصب الحكم في أرض البلاغة التي تعدها إمبراطوريتها، ومن ثم فما أوجه التوافق بينهما؟ وما الإضافة التي يمتاز بها كل مفهوم عن الآخر؟ وهل من الصواب في منطق البحث العلمي الإبقاء على مفهوم واحد-إذا ثبت التوافق بينهما- بمصطلحين اثنين؟

وبصيغة أكثر دقة: هل يمكن قبول "الجمهور" على أنه "مستمَع"، في ضوء توسع مفهوم "المستمع"، الذي قال عنه الأستاذ العمري: "وبهذا التوسيع صار المستمَع Auditoire يستوعب مصطلحات متعددة منتجة في سياقات مختلفة، لسانية ومنطقية وجمالية، مثل: المستمِع، والمخاطب، والمتلقي، والقارئ، والمتقبل... الخ ويعطيها خصوصية المقام الإقناعي"؟[1]

إن منطلقنا في هذه العلاقة هو تساؤلات الأستاذ العمري التي تشكل

(1) العمري (محمد): أسئلة البلاغة، هامش ص:39.

عماد مشروعه البلاغي. فـ"أين توجد البلاغة؟ هل هناك بلاغة واحدة، أم بلاغات متعددة؟ وإذا كانت هناك بلاغات متعددة، هل هناك: مشروعية لقيام بلاغة عامة تنسق هذه البلاغات الخاصة وتتحدث باسمها في نادي العلوم المحيطة بها؟".[1] ومن هذا المنطلق الذي يعد بلاغة الجمهور بلاغة خاصة في إطار بلاغة عامة، وبالضبط بين مفهومين ينتمي الأول إلى البلاغة الخاصة وهو مفهوم (الجمهور)، ومفهوم ثانٍ ينتمي إلى البلاغة العامة وهو (المستمع)، بيّنا سابقا بشكل عام تقاطع البلاغتين في عنصري الاحتمال والتأثير. ولئن اشتركت البلاغتان في الاهتمام بـ(الجمهور/ المستمع)، بتنويره وفتح عينيه على مغالطات الخطاب وتضليلاته، فقد تفردت "بلاغة الجمهور" بدراسة استجاباته في أفق ترشيدها تقويضا لسلطة الخطاب التي تسعى إلى السيطرة على الجمهور، كما زادت البلاغة العامة من مجال دراسته في جناحين هما: التخييل والتداول.

نخلص مما سبق عرضه، إلى أن مفهوم الجمهور يختلف مع مفهوم المستمع على الرغم من كونهما ينتميان إلى أرض البلاغة، وبذلك تتشكل خصوصية مفهوم الجمهور، خصوصية تعترف بها البلاغة العامة في بنائها، على الرغم من تغطية المستمع منطقة أوسع تتمثل في رصده في جناحي التخييل والتداول، فالجمهور ينتمي إلى الخطاب التداولي الحجاجي، ولكن ما يصدره مثلا من استجابات قد تكون في أصلها ذات طبيعة تخييلية كـ(الشعر والرسم واللون....)، ولكنها تتحول إلى طبيعة حجاجية إقناعية في إطار تداولي؛ ومن ثم، يسهم وصف الجمهور من منظار البلاغة العامة في توسيع دائرة الوصف والتحليل، تجعلنا نقف في منطقة تقاطع بين التخييل والتداول،

(1) العمري (محمد): البلاغة الجديدة، ص:5.

فـ"نظرا لاختلاف المستمَع وسياق محاورته، فمن الطبيعي أن تختلف آليات التأثير عليه، أحيانا تكون وسائل التخييل فعالة، وأحيانا ثانية تكون أدوات الحجاج مرجحة، وأحيانا أخرى تكون آليات التخييل والحجاج معا، وفي تفاعلها، حاسمة، تبعا لنوعية المستمع/ المخاطب ووضعياته".[1] وهذا الأمر يحتاج للأجرأة حتى تتضح الصورة، ونقول إجمالا: إن مفهومي الجمهور والمستمع يلتقيان في دائرة الاحتمال والتأثير، ثم ينزع فيها مفهوم الجمهور نحو خصوصيته البلاغية التي تشكلها بلاغته عبر مهمة تقويض سلطة الخطابات السلطوية التي تهدف إلى السيطرة على الجمهور والتلاعب به. ويمكن تمثل ذلك من خلال الجدول الآتي:

مفهوم	
المستمع	الجمهور
يتحدد المستمع بكونه من يُوجَّه إليه خطاب المنشئ قصد التأثير فيه وإقناعه في مقام تداولي معين أو تخييله في مقام شعري، سواء كان هذا التواصل عاما أم فرديا.	يتحدد الجمهور بكل من يتلقى خطاب المنشئ خصوصا حين إصداره استجابات محددة في مقام تواصلي عمومي (التركيز على خطابات ذات وسائط افتراضية، مثل الفيسبوك واليوتيوب...).

(1) جبري (إدريس): "في علاقة البلاغة العامة بالبلاغة الخاصة"، ص:50-51.

يُنظر إلى المستمع من جهة منشئ الخطاب	ينظر إلى الجمهور من جهته التي تقابل جهة منشئ الخطاب، لذلك تسمى بلاغة الجمهور بلاغة معكوسة.
التركيز على المغالطات والتضليلات التي ينطوي عليها الخطاب التداولي، وعلى العوالم الذاتية في الخطاب التخييلي، الموجهة للمستمع.	التركيز على استجابات الجمهور لترشيدها مُقَاوَمَةً للخطابات السلطوية وتقويضا لسلطويتها.

وإجابة عن السؤال المعلق، يمكن القول إن مفهوم المستمع في جانبه الإقناعي يتسع لمفهوم الجمهور، لكن مع تفرد الجمهور بخصائص تشكل جوهره البلاغي، خصائص يمكن دمجها في الإطار التحليلي للبلاغة العامة.

المبحث الثاني

العلاقة بين المشروعين البلاغيين على المستوى الإجرائي

المطلب الأول: البعد التداولي في تحليل الخطابات

1- مع محمد العمري

تجاوز التحليل البلاغي عند العمري النصوص العليا أو المتعالية وانخرط في خطابات الحياة اليومية التي دعا إليها فيما بعد عماد عبد اللطيف، وهذا التناول التداولي الحجاجي للخطابات المتنوعة، أشار إليه حين تعريفه الحوار قائلا: "وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى"،[1] وفي إطار الإسهام في تخليق الخطاب السياسي المغربي تندرج كتبه الآتية:

(1) العمري (محمد): دائرة الحوار ومزالق العنف، ص:9.

1. تحليل الخطاب الأصولي عوائق الحوار..قراءة حجاجية في خطاب الأصوليين المغاربة..مساهمة في تخليق الخطاب السياسي (2015).

2. منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين عوائق الحداثة في المغرب (2009).

3. دائرة الحوار ومزالق العنف كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب (2002).

وتعد هذه الكتب -بالإضافة إلى مجموعة من المقالات- امتدادا معرفيا لكتاب "في بلاغة الخطاب الإقناعي" (1986)، إذ تمثل مجتمعة الجناح التداولي للبلاغة العامة تنظيرا وتطبيقا مع غلبة التطبيق نظرا للفئة المستهدفة. وذلك دون إغفال الجانب التخييلي ضمن ما يسميه الباحث "الكتابة الحوارية البيداغوجية التي تركب فرسين: تضع رجلا على الحجاج ورجلا على التخييل: الأرقام في يد والخشبيات في يد"،[1] وهو يأخذ على عاتقه في ذلك هم الكشف عن انزلاقات الحوار، الدور الذي تسعى إليه بلاغة الجمهور في كشف ذلك أمام الجمهور، بل إن العمري يتحمل تبعات ذلك الكشف والتعرية أمام من يجدون خطاباتهم تتعرض للتعرية، يقول في هذا المسعى النبيل: "رأينا من واجبنا معرفيا وأخلاقيا أن نساهم في إبراز شروط الحوار وأدبياته، وكشف بعض مزالقه، تنويرا لذوي النوايا الحسنة من طلاب المعرفة".[2] وذلك كله في سبيل معرفة قواعد الحوار واحترامها وكشف انزلاقاتها أمام "فئات مختلفة متفاوتة المستوى الثقافي من القراء، ابتداء من

(1) العمري (محمد): عوائق الحوار، ص: 8.
(2) العمري (محمد): دائرة الحوار ومزالق العنف، ص:10.

التلميذ إلى الطالب إلى من في مستواهما من المتعلمين، فما فوق ذلك".[1] ويَعُدُّ عملَه ضمن "الاتجاه التنويري" أي تنوير العقول وتفتيحها أمام الخطابات المضللة، يقول في هذا الصدد: "وبهذا نساعد القارئ على تكوين مناعة ذاتية تجعله يكتشف الخدع ويعامل أصحابها بنقيض قصدهم، ويرد كيدهم في نحرهم. وهذا الموقف يتضمن رفض أي وصاية على القارئ تحت أي اسم جاءت، وعن أي رقيب صدرت".[2]

ومن طريف القول أننا نجد إشارات عنده تتماشى ودعوى بلاغة الجمهور، مثل قوله: "سيكون من الطريف دراسة الموسيقى التي استعملت في التجمهرات العمالية من الاستقلال إلى اليوم".[3] بل نجده يصرح في سياق الحديث عن لغة الحياة اليومية (العامية) في الخطاب السياسي، بـ"الحاجة إلى القيام بدراسة ميدانية تتناول عينات من الخطب والخطباء لدى فئات الجمهور المستهدف قبل الحديث في فعالية العامية ومحاذر الابتذال".[4] ومن ثم، تتبين وظيفة البلاغة عند محمد العمري، فالبلاغة في نظره "لا قيمة لها إذا لم تجد لها طريقا إلى حياة الناس لتعلمهم أسس الحوار والإقناع وتكشف لهم أساليب المغالطة".[5]

يستحضر العمري في هذه المهمة البعد التداولي -الذي غُيّب- لتخليق الخطاب من زاوية البلاغة، فالبلاغة ظلت بلاغة صور وتعبير على مدى

(1) العمري (محمد): عوائق الحوار، ص: 23.
(2) العمري (محمد): دائرة الحوار، ص:94.
(3) نفسه، ص:47.
(4) نفسه، ص: نفسها.
(5) وهابي (عبد الرحيم): "القراءة التداولية في البلاغة العربية، قراءة في المنجز البلاغي لمحمد العمري"، ص:81.

عدة قرون، فـ"قد ظلت أفكار ابن رشد والفارابي والفلاسفة على هامش الفكر البلاغي فيما يخص تخليق الخطابة".[1] كما نلاحظ أن الخطاب السياسي أو بالأحرى الخطابة السياسية هي التي استأثرت بتحليل العمري بشكل ملحوظ، وليس ذلك اعتباطيا، بل له قصدية عند الباحث لأنه لا يجد "اهتماما نظريا أو تطبيقيا ملموسا في مجال تحليل القول الخطابي عامة والسياسي خاصة. وهو الذي يهمنا [الضمير يعود على العمري] أكثر من غيره في هذا الظرف".[2]

إن اهتمام الباحث بالخطاب السياسي والتداولي بشكل عام يدخل ضمن مشروعه البلاغي (البلاغة العامة)، كما ذكرنا آنفا، وأهم ما يميز تحليلات العمري هو استنباط المغالطات من المتن الخطابي المشتغل عليه وليس انطلاقا من معايير معدة سلفا ينقب عنها، وبهذا الشكل من التحليل نكون أمام البلاغة الوصفية أي بوصفها علما. وأهم ما يميز تحليلاته توظيفه آلية السخرية بوصفها آلية حجاجية تسهم في كشف تضليلات الخطاب، ويعدّها الباحث إجراء بيداغوجيا "يستعمل الخشيبات حيث لا ينفع التجريد والاستنتاج العلمي".[3]

2- مع عماد عبد اللطيف

تدل عناوين البحوث التي كتبها عماد عبد اللطيف -بين كتب ومقالات وحتى العناوين المترجمة- على اهتمامه بالجانب التداولي في تحليل الخطابات، وخاصة فيما يتعلق بالخطابة السياسية بوصفها شكلا من أشكال التواصل

(1) العمري (محمد): دائرة الحوار، ص:39.
(2) نفسه، ص:42.
(3) العمري (محمد): عوائق الحوار، ص:22.

المباشر؛ فالخطابة السياسية التي شُغل بها الباحث تنظيرا وتطبيقا، لا يمكن مقاربتها إلا من هذا الجانب التداولي للبلاغة الذي يُستحضر فيه المقام بمكوناته بدءا من الخطيب وهيئته ومرورا بخطابه وبنيته اللغوية وكيفية أدائه وصولا إلى استجابة الجمهور له إما قبولا أو رفضا وما يستتبع ذلك من أشكال الاستجابات المتنوعة.ونبرز ذلك من خلال سرد عناوين الكتب الآتية:

1. الخطابة السياسية في العصر الحديث: المؤلف، الوسيط، الجمهور. (2015). دار العين، القاهرة.
2. بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة. (2012). دار التنوير، بيروت – القاهرة – تونس.
3. استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي خطب الرئيس السادات نموذجا. (2012). الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
4. لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. (2009). دار العين، القاهرة.[1]

كانت أولى دراسات الباحث المطولة كتابُه "لماذا يصفق المصريون؟" انطلق فيه من فكرة أن التصفيق "يمثل...إحدى الاستجابات التي يستطيع الجمهور إنتاجها في سياق التفاعل اللفظي الآني مع خطاب المتكلم"،[2] فدرَسه من خلال المقام التداولي الذي ينتج فيه وليس معزولا عنه، ولذلك

(1) يمكن الاطلاع على جميع تلك العناوين وتحميل بعضها من خلال الرابط:
https://www.academia.edu/5037526

(2) عبد اللطيف (عماد): لماذا يصفق المصريون؟، ص:64.

نجده في دراسته هاته قد ركز على خطب سياسية مصرية معاصرة لمحمد نجيب، وأنور السادات، وجمال عبد الناصر، وحسني مبارك.

ولكن أبرز دراساته في هذا الجانب التداولي هي "بلاغة الحرية" لارتباطها بحدث تاريخي مهم في تاريخ البلدان العربية، وهو ما يدعى "ثورة الربيع العربي" التي عاشتها مجموعة من البلدان العربية بدءا من تونس ومرورا بمصر وليبيا واليمن إلى ما تزال تعيشه سوريا. فقد شكل هذا الحدث الكبير تساؤلات من بينها: "جماليات تداول الخطاب السياسي في الفضاءات المكانية المفتوحة، ودور الحشود في إنتاج الخطاب السياسي"،[1] وهو أمر متعلق بشكل كبير بكيفية مقاربة مثل هذه الخطابات الجديدة على الحقل البلاغي العربي، وهذا ما سنفصل فيه في المبحث الثاني. كما أن بلاغة الجمهور "وجدت... في الربيع العربي برهانا على افتراضاتها النظرية"،[2] وهذا "البرهان" ينطوي على انتقاد مفاده خُلُوُّ الخطابات الجماهيرية من أي بلاغة، ومرد الأمر إلى الاختلاف في مفهوم البلاغة نفسه، إذ إن من ينفي البلاغة عن هذه الخطابات يستحضر في ذهنه إبدال البلاغتين القرآنية والأدبية في حين أن مفهوم البلاغة مع هذا التوجه الجديد يتسع ليشمل كل ما يحدث التأثير في الجمهور أو يقنعه أو هما معا، ولا تهم قيمة منشئه في تراتبية السلم الاجتماعي.

إن الإحساس بالفراغ في الكتابة الأكاديمية العربية على مستوى تحليل الخطابات السياسية هو الذي حفز الباحث على مثل هذه الدراسات بهذا الكم المتزايد، سواء من مدخل اللغة أو من مدخل سميائي كما في دراسته

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:11.
(2) نفسه، ص:15.

"لماذا يصفق المصريون؟". ومن أهم مظاهر التناول التداولي للخطابات السياسية رصدها في وسائطها المتنوعة وخاصة فيما استجد من وسائط التواصل الاجتماعي كالفيسبوك.

نذكر مرة أخرى أننا لا نقارن بين البلاغتين، وقد أسهبنا في عدم جواز ذلك في الفصل الأول، فلكل إبدال تصوره وقواعده، وما يهمنا هو تعرف ذلك والتفصيل فيه، وتبعا لذلك نرى أنه من الأنفع النظر في نتائج الإبدالين مجتمعين ومدمجين في بعضهما.

المطلب الثاني: موقع بلاغة الجمهور في البلاغة العامة/ مستويات التحليل

يقود الحديث عن بلاغة الجمهور بوصفها مستوى من مستويات التحليل إلى الحديث عن المقاربة التي تتبعها في دراسةِ مِنْطقتِهَا البحثية المتمثلة في استجابات الجماهير في الأفضية العمومية، وعن أدواتها التي تُعْمِلُها في تحليلها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقود إلى البحث في علاقتها بالبلاغة العامة في هذا الإطار التحليلي، ودائما ضمن تصور علاقة العام بالخاص. واعتبار "بلاغة الجمهور" مستوى من مستويات التحليل ليس أمرا جديدا أو مبتدعا منا، فهذه الفكرة لازمت مراحل تطور المشروع، بدءا من التأسيس، بل إن من بواعث نشأة هذا الحقل المعرفي الجديد، هو تنبّه الباحث إلى افتقاد بُعْدٍ رابع في الإطار التحليلي لنورمان فيركلوف، يقول الباحث في هذا الجانب: "وقد حاولت في دراسات سابقة أن أقدم مقترحا

للدمج بين البلاغة العربية وتحليل الخطاب من خلال إضافة بعد رابع إلى إحدى المقاربات شديدة الانتشار في دراسات الخطاب الراهن هي مقاربة اللساني البريطاني الشهير نورمان فيركلوف، مؤسس ما يعرف بالتحليل النقدي للخطاب. ويقوم هذا المقترح على إضافة بُعْدِ استجابة الجمهور إلى الأبعاد الثلاثة التي تؤسس إطار التحليل الذي يقترحه فيركلوف؛ وهي تحليل النص، وتحليل إنتاج الخطاب وتوزيعه، وتحليل العمليات الاجتماعية المحيطة به".[1] وهذه الخطوات التحليلية هي نفسها التي يتبعها الباحث في دراساته كلها مع الإشارة دائما إلى البعد الجديد في التحليل، البعد الذي يختص بدراسة استجابات الجماهير، وهذا البعد يمكن دمجه كذلك في إطار المقاربة التحليلية للبلاغة العامة؛ فنكون أمام مقاربة بلاغية تجمع المراحل السابقة، أي من إنتاج النص وإلقائه إلى تلقيه وما يستتبع ذلك من استجابات من شأنها أن تدخل تغييرا على خطاب المتكلم أو أن تكون بمرتبة نص جديد ينشأ في مقام النص الأول وقد يفوق درجة انتشار النص الأصلي، خاصة إذا كان الوسيط رقميا. كل ذلك في إطار تداولي لا يغيب التخييل. ومما يجعل الأمر سهلا على مستويي التنظير والإجراء هو الطبيعة الامتدادية غير الإقصائية لبلاغة الجمهور مع البلاغة التقليدية.

لقد وقفنا فيما سبق خلال مسيرتنا البحثية في هذين المشروعين البلاغيين عند مراحل الوصف والتحليل التي يتبعها الباحثان متجاوزَيْنِ ذلك إلى النقد، ونحن إذ نتحدث عن ذلك نعي بأننا لَمَّا نُبَيِّنْ فيها ولَمَّا نُفَصِّلْ على نحو يُظهر تلك المراحل بشكل بيداغوجي، وحتى تتضح الأمور بشكل جلي سنحاول الدمج بين المشروعين في حديثنا عن مقاربتيهما. وقبل ذلك

(1) عبد اللطيف (عماد): "مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر"، ص:248.

ستتحدث حجاجيا عن مشروعية معاملة بلاغة الجمهور بوصفها مستوى من مستويات التحليل انطلاقا من قول صاحب المشروع نفسه، إذ نلتقي مع هذه الفكرة في أول كتاب جماعي لـ"بلاغة الجمهور" (2017)، حين أشار الباحث إلى أنه يمكن التعامل مع بلاغة الجمهور على أنها مستوى من مستويات التحليل البلاغي، وهو بذلك يحيل على ربط جسر مع البلاغة التقليدية فيقترح لذلك باقي المستويات التي تدمج مع بلاغة الجمهور في إطار تصور بحث بلاغي تفصيلي، وهذه المستويات هي:

مستوى بناء النص البلاغي (ويشمل دراسة الأصوات، والصرف، والتركيب، والمعجم (في النص اللغوي)؛ أو الألوان والمنظور والبؤرة (في الصورة)، ويضاف إليها الحركة (في النص المرئي المتحرك)،

مستوى الحجج (تقنيات الحجاج والتفنيد)،

مستوى الصور البلاغية (سواء الصور اللفظية والمرئية)،

مستوى السياق (دراسة العلاقة بين تشكلات الكلام وأدائه من ناحية، وسياقه ووظائفه من ناحية أخرى)،

مستوى استجابة الجمهور (العلاقة بين النص وأدائه واستجابات الجمهور له).[1]

وللإشارة فالسؤال عن كيفية مقاربة الخطابات السياسية وتحليلها في إطار ما استجد منها في الساحة السياسية العربية المعاصرة أدى إلى صعوبات مست "الأبعاد المنهجية المتعلقة بكفاءة أدوات التحليل، وعملياته، وإجراءاته، المستعملة في تحليل هذه الخطابات".[2]

(1) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:34.
(2) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:11.

1- المقاربة التحليلية لبلاغة الجمهور

من خلال تتبع الوصف الذي يطلقه الباحث عبد اللطيف على بلاغة الجمهور، نجدها موصوفة بشكل كبير بمشروع، يليه وصفها بالإطار النظري أو المقاربة. وذلك للأسباب التي عالجناها بشكل مقتضب في الفصل الأول.

يتطلع المتتبع لهذا المشروع البلاغي الذي يحدد منطقة بحثه في دراسة استجابات الجماهير إلى معرفة كيفية مقاربة تلك الاستجابات، أي الخطوات التي يتبعها الباحث في دراسة استجابات متنوعة ومتعددة، وهل هي خطوات محددة تتكرر مع كل خطاب يتعرض للتحليل؟ كما يَنْصَبُّ الحديث كذلك على إسهامات الباحثِينَ الذين التفوا حول هذا المشروع؟

سنبدأ أولا مما يتعلق بدراسات الباحث مع التركيز على بعض كتاباته، لأن مثل هذا التتبع المستقصي يحتاج إلى قراءة كتابات الكاتب كلها ووصفها وتحليلها ونقدها، وهذا عمل يحتاج بحثا مستقلا، ولكن هدفنا في هذا المقام يركز بشكل كبير على إثارة هذا السؤال المنهجي في هذين المشروعين البلاغيين، وهو سؤال سيبقى معلقا حتى يَجِدَ له جوابا؛ لأنه سؤال جوهري يهم المشروع، بل يهم البلاغة الجديدة بشكل عام. وفي انتظار ذلك سنلتقط بعض الإشارات المنهجية من تنظيرات الباحث كما سنحاول وصف العمل الذي يقوم به الباحثون الملفتون حول المشروع.

يَعُدُّ الباحثُ "الجمهورَ" -بمفهومه الإيجابي ضمن مشروعه البلاغي- حقلاً معرفياً، ومن ثم، يحتاج إلى مقاربة تهتم به تبرز مكانته في تحليل الخطاب ودوره كذلك بشكل أكاديمي، فكان تبعا لذلك، أن درس الباحث الخطابات

الجماهيرية في تعبيرها اللغوي وغير اللغوي، وسيرا مع الزمن نجده بعد مقاله التأسيسي (2005) يدرس ظاهرة التصفيق بوصفها استجابة جماهيرية يمكنها أن تتحول إلى سلطة تحدث تغييرا في خطاب المتكلم، وقد جاءت دراسته في أرض بلاغية تخلو من دراسات مثلها فكان أن اقترح لدراسة ظاهرة التصفيق مقاربة بلاغة الجمهور، يقول: "هذا النقص في أدوات دراسة التصفيق هو الذي دفعني إلى محاولة الإفادة من مشروع بلاغي عربي معاصر هو "بلاغة الجمهور".

وسوف أقوم في الصفحات الآتية بعرض بعض الأفكار المبسطة عن هذا المشروع، وكيفية استخدامه في دراسة التصفيق في المجتمع المصري"،[1] ومن أهم الخطوات التحليلية في هذه الدراسة اعتماد الباحث التصنيف خاصة الثنائي واعتماده المقارنة لدراسة الاستجابات الجماهيرية، وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان الباحث ينطلق من خطاب المتكلم ليدرس تأثيره على الجمهور من خلال تمظهرات الاستجابات أو العكس أي الانطلاق من الاستجابات إلى البحث عن مسبباتها. ومدار الأمر هو أن الباحث يدرس أولا الاستجابات الجماهيرية في مقاماتها التداولية والبحث في خطاب المتكلم عن "المثيرات" الخطابية -بما فيها الأداء- التي شكلت تلك الاستجابات. أما حين تقديم التحليل مكتملا فإننا نرى مسايرة المنطق الطبيعي للأحداث كما هي في الواقع، بتقديم تحليل خطاب المتكلم قبل الحديث عن الاستجابات المتعلقة به. ولذلك فالاهتمام بخطاب المتكلم في إطار المقاربة التحليلية لبلاغة الجمهور يكون من أجل رصد التواشجات الخطابية في علاقتها بالاستجابات، ثم بعد ذلك ينتقل إلى تلك الاستجابات

(1) عبد اللطيف (عماد): لماذا يصفق المصريون؟، ص:57.

لتصنيفها ومقارنتها والبحث في علاقة الوسائط التواصلية بذلك وتأثيراتها بحثا عما يمكن أن يخدم الجمهور من استجابات تكون مهمتها إما إحداث تغيير في الخطاب السلطوي للمتكلم أو تقويضه كليا.

إن الانتقال من خطاب المتكلم مرورا بأدائه وتداول الخطاب واستهلاكه وصولا إلى الاستجابات ومحاولة رصد التفاعل العكسي، يبقى مثل ترسيمة أو خطوط عريضة لا تحدد أدوات المقاربة البلاغية للمشروع، إن بلاغة الجمهور مقاربة مفتوحة على تخصصات أخرى تجد معها تقاطعات على مستوى التصورات، ومن ثم، تستلهم أدواتها الإجرائية، يقول عبد اللطيف في إطار مقاربة بلاغة الجمهور لخطابات الربيع العربي: "تنوعت الإجراءات والمنهجيات المستعملة في مقاربة هذه الموضوعات المتعددة. وقد ذكرتُ في أكثر من سياق أن بلاغة الجمهور تنفتح إجرائيا على منهجيات متعددة، وأن أدوات التحليل، وإجراءاته، تتباين من موضوع إلى آخر، بحسب السؤال البحثي، وطبيعة المدونة المدروسة، وغاية البحث".[1] إن الحديث عن منهجية مقاربة بلاغة الجمهور في تحليل الخطابات تأخذنا إلى النتيجة التي استخلصناها في بحث بعدها المفهومي، لنؤكد مرة أخرى على أن بلاغة الجمهور قد أسست فعلا تصورا إبستمولوجيا ثابتا في أرض البلاغة ولكن البعد الإجرائي لا يزال يتشكل، لـ"أن بلاغة الجمهور لم تنجز بعد إطارا تحليليا جديدا، وإن كانت تسعى لتدشينه. وربما يتعين على الباحثين الممارسين لها في المرحلة المقبلة صياغة مثل هذا الإطار".[2]

•

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:16.
(2) عبد اللطيف (عماد): "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ص:35.

ونحن إذ نؤكد ذلك نؤمن بأهمية الانفتاح الذي تقيمه بلاغة الجمهور مع مجموعة من الحقول المعرفية أو المقاربات التحليلية على رأسها التحليل النقدي للخطاب، ولكن ذلك لا يعفيها من تكوين أدوات ثابتة خاصةٍ بها في البعد الإجرائي. وخاصة إذا تعلق الأمر بتبنيها تصورا تكامليا للمناهج،[1] إذ يتحول النقاش من كيفية الاستفادة من مختلف المعارف التي تتيحها تلك المناهج وتحويلها إلى مقاربة بلاغة الجمهور لتكتسب طابعا خاصا بها ويبتعد بها عن التراكم والتجاور في التحليلات إلى البحث في التقاطعات والروابط الخفية لفهم الخطابات وتحليلها ونقدها، ومن ثم يعود حديث دمج بلاغة الجمهور في إطار البلاغة العامة أو البلاغة التقليدية أو غيرهما أمرا يسيرا مقارنة بما أشرنا إليه سابقا.

هذا الأمر المشار إليه لم يغب عن الباحث بل يحس به ويعرف إشكالاته، إذ يقول عنه: "وعلى الرغم من ذلك، فإن بلاغة الجمهور بحاجة إلى تطوير أدوات تحليل خاصة بها، كي تتمكن من معالجة أسئلتها المستحدثة، والتي تتمحور حول الأبعاد المختلفة للعلاقة بين الخطاب والسلطة"،[2] وهذه المهمة تلقي بعبئها على الوافدين على بلاغة الجمهور بشكل كبير خاصة بعد اهتمام صاحب المشروع بالجانب التصوري للمشروع بشكل أكبر. وتبعا لذلك فقد جاءت اهتمامات هؤلاء الباحثين مختلفة، ولكن أغلب كتاباتهم اتسمت بطابع تعريفي بالمشروع، ثم محاولة تحليل الخطابات والربط بين الأدوات الإجرائية التي يعتمدونها والتصور العام للمشروع البلاغي.

(1) عبد اللطيف (عماد): "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي"، ص:16.
(2) نفسه، ص:17.

ونظرا لأننا توقفنا في الفصل السابق مع الكتاب الجماعي لبلاغة الجمهور (2017)، ودرسنا أهم مفاهيم هذه البلاغة وهو ما مكننا من تبين التصور الذي يتبعه الباحثون في اشتغالهم على الخطابات انطلاقا من مقاربة بلاغة الجمهور، وذلك التصور يقوم بشكل أساس على الأخذ بالتصور الإبستمولوجي لهذه البلاغة ثم التوسع بعد ذلك في اختيار أدوات إجرائية مستمدة من حقول مختلقة كأدوات نظرية الحجاج البلاغي[1] أو حقل السميائيات[2] أو من التداولية[3] لتحليل الاستجابات الجماهيرية.

سنتوقف في هذه المحطة مع كتاب فَردي يعدّ أول كتاب كامل مخصص لتحليل الخطاب باعتماد مقاربة بلاغة الجمهور بعد أعمال عماد عبد اللطيف، وهو كتاب "بلاغة جمهور الخطاب السياسي" لعبد الوهاب صديقي.

يُعد هذا الكتاب أول عمل مطول يتخذ بلاغة الجمهور مقاربة لتحليل الخطاب السياسي، عرَّف فيه صاحبه القارئَ العدةَ المفهومية لبلاغة الجمهور التي استقراها من مجموع كتابات الباحث عماد عبد اللطيف في شكل معجمي، قبل أن ينتقل إلى الشروع في تطبيقها على الخطابة السياسية محافظا بذلك على نوعية الخطاب الذي نشأت معه بلاغة الجمهور وهو الخطاب السياسي، مشيرا إلى العلاقة القوية التي تربط بين الخطابة والسياسة متجلية في حيازة السلطة رغبة في السيطرة على الجمهور وتطويعه.

(1) انظر عبد الحميد (أحمد): "يسقط يسقط ! بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية"، ص:255-271. وانظر كذلك، صديقي (عبد الوهاب): "بلاغة الجمهور والخطاب السياسي المغربي المعاصر في الفضاء الرقمي"، ص:328-364.

(2) انظر عبد العزيز (بسمة): "بلاغة المقاومة.. الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية البليغة"، ص:272-309.

(3) انظر أبو الحسن (بهاء الدين): "بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي"، ص:310-327.

يعتمد الباحث في كتابه هذا على مفاهيم بلاغة الجمهور، وهناك ملاحظة سبق لنا الحديث عنها تتكرر في هذا العمل، وهي المتعلقة بالابتداء تحليلا بخطاب المتكلم، ولذلك نلحظ الباحث في كتابه يتحدث بداية عن استراتيجيات الخطابة السياسية العربية المعاصرة من ترهيب وترغيب والتفات،[1] ثم ينتقل إلى الحديث عن الجمهور وبلاغته في الصراع مع بلاغة المتكلم ويتخذ لذلك الصراع مجموعة من التسميات سواء من جهة الخطيب أو من جهة الجمهور أو من جهة تفاعلهما معا، كما يتحدث عن بنية الخطاب وأهم مكوناته البلاغية (الاحتشاد البلاغي، والتضفير الخطابي، والذاكرة البلاغية، والتجريد البلاغي، والإكراه البلاغي).[2] كما أنه قد وظف تحليلات سميائية في القراءة البلاغية لبعض الصور مستفيدا كذلك من التحليل النقدي للخطاب وكأن ذلك تطبيقا لإمكان دمج بلاغة الجمهور بالتحليل النقدي للخطاب الذي دعا إليه صاحب المشروع عماد عبد اللطيف.

ليست بلاغة الجمهور بالفعل منهجا قائم الذات، ومن ثم، نلحظ مع من يعتمدونها مقاربة لتحليل خطابات الجماهير استلهام أدوات إجرائية من مجموعة من الحقول المعرفية رصدا لانزلاقات الخطابات السلطوية وكشف ألاعيبها وتضليلاتها. فإلى حدود اللحظة ليس هناك بلورة لأدوات ثابتة في تحليلات مقاربة بلاغة الجمهور وربما لن يكون ذلك ضروريا لها في مسعاها، وتبقى تلك المقاربة محددة الإطار الذي يشكل تصورها الإبستمولوجي وأهدافها؛ فَتَجْعَلُ تَعَرُّفَ الجمهورِ تضليلاتِ الخِطابات

(1) صديقي (عبد الوهاب): بلاغة جمهور الخطاب السياسي قضايا ونماذج، ص:61-62.
(2) نفسه، ص:68-72.

السلطوية غاية في ذاته، مما من شأنه تحقيق الوعي الجماهيري. ومن هذا المنطلق الأخير يسوغ دمج بلاغة الجمهور في إطار المقاربة التحليلية للبلاغة العامة باعتبار وحدة الرؤية البلاغية فيهما في الكشف عن تضليلات الخطاب أمام المستهدفين به.

2- المقاربة التحليلية للبلاغة العامة

يتبع العمري في قراءاته التي تتخذ البلاغةَ العامةَ مقاربةً للتحليل منهجيةً تجمع بين التخييل والتداول، فسواء كان النص تخييليا أو تداوليا فلا بد من حضور هذين الجناحين معا في القراءة، وذلك باعتماد مقولتي الهيمنة والمداخل، فالهيمنة تعترف بوجود عنصري التخييل والتداول معا في النصوص المقروءة، ولكن مع غلبة أحدهما على الآخر، ومن ثم يكون التركيز على عنصر منهما باستخراج تقنياته بشكل أكبر وتفسير النص على ضوئه انطلاقا من تلك الهيمنة. والهيمنة مرتبطة كذلك بالنزوع فالنصوص والخطابات عامة، تجمع بين العنصرين ولكنها تنزع نحو أحدهما على حساب الآخر.

أما مقولة المداخل، فهي التركيز على العنصر المهيمن في النص واتخاذه مدخلا للقراءة، داخل النص التخييلي أو التداولي،[1] وهنا نلتقي مع جوهر البلاغة العامة الذي يكمن في تداخل التخييل والتداول، يمتد التخييل ليستشرف التداول ويتسلل التداول ليمرق في التخييل. وبعد ذلك تحضر عملية تنسيق التحليلات الجزئية وضمها إلى بعضها لاستشكاف قدرة

(1) استخدم العمري مقولة المدخل في تناوله السيرة الذاتية بوصفها بلاغة خاصة، انظر العمري (محمد): البلاغة الجديدة، المبحث الثاني من الفصل الثاني، ص:139-159. كما ركز على مقولة الادعاء في معالجة المجاز، انظر الكتاب نفسه، ص:178-182.

التحليل البلاغي على الإحاطة بالنص/ الخطاب كيفما كان، ما دام ينتمي إلى دائرة الاحتمال.

أما فيما يخص تحليل الخطابات من الناحية التداولية فقد رصدنا في المطلب الأول من هذا المبحث الجانب التداولي في مقاربة البلاغة العامة. و أهم الأدوات التي اعتمدها العمري في تلك التحليلات هي الكشف عن آليات المغالطة وما يرتبط بها من استهواء.[1] وهذه الآليات يكشف عنها في المتن المدروس باستلهام نظرية الحجاج البيرلمانية، كما يتبع في عمليته النقدية آلية السخرية البلاغية كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

ولا يخفى على متتبع كتابات محمد العمري اعتماده التحليل البنيوي اللساني للنصوص والقراءة التاريخية المستلهمة من نظريات التلقي والانفتاح على الجانب التداولي وجعله بوتقة لصهر كل جزئيات التحليل.

إن ما يمكن أن نختتم به الجانب المنهجي لهذين المشروعين البلاغيين هو أنهما يعاملان النصوص والخطابات باعتبار مقاماتها التداولية التي أنتجت فيها، ومن ثم، خفوت القواعد المطردة المتبعة في تحليلات صاحبي المشروعين إلى درجة انعدامها، وذلك إيمانا منهما بأن لكل خطاب بلاغته الخاصة المرتبطة بمقام إنتاجه وتداوله وتلقيه، إنها المغايرة التي تتسم بها البلاغات الخاصة ولكن هذا التغاير في السمات البلاغية يجعل إمكان الحديث عنها في إطار بلاغة عامة ممكنا كما رأينا على مدار صفحات هذا البحث، كما أن الباحثَيْنِ ملتزمان بالأسئلة البلاغية عوض إسقاط قواعد

(1) الاستهواء من الهوى أي الميل النفسي، في مقابل اتباع العقل. لمزيد من التفصيل، انظر العمري (محمد): دائرة الحوار، ص:12-14.

جاهزة؛ فالبلاغة بشكل عام إجابة عن أسئلة العصر الذي يعيشه البلاغي ذو التجربة الواسعة.

خاتمة

ليست المفاهيم مجرد تشكيلات لغوية، لأنها مسيرة بناء تحمل في طياتها محاولات الإجابة عن جملة من الأسئلة المضنية، أولها لماذا ننشئ المفاهيم؟ وآخرها هل يمكن أن تتجاوز الإشكالاتِ القائمةَ في مجالها؟ وبين هذين السؤالين تتناسل مجموعة أخرى من الأسئلة.

إن ظهور مفهوم جديد في حقل البلاغة على نحو منطقي، يخفي وراءه عائقا إبستمولوجيا لا تستطيع المفاهيم الأخرى تجاوزه، وقد رأينا على مدى الصفحات الماضية الأسباب التي دعت الباحثيْن إلى اقتراح مفهومي (الجمهور والمستمَع)، ومن ثم كان تساؤلنا عما إذا كانا بمفهوم واحد، ليتبين أن هذين المصطلحين ذوا مفهومين مختلفين، ثم انتقلنا إلى البحث في العلاقة بينهما مُنطلقين من دعوى البلاغة العامة التي تستدعي بلاغات خاصة وتطلبها ضمن مجال الاحتمال والتأثير مع حفظها خصوصياتها.

كما أن معالجة هذين المفهومين استدعت بين الفينة والأخرى مجموعة من المصطلحات الأخرى التي تتعالق بها في إطار نسقي وتنسيقي، حاول الباحثان بناءه لمشروعيهما، ولاحظنا تجاذبات أخرى مع حقول معرفية ذات صلة بهما، خاصة مع مفهوم الجمهور.

وإذا كانت هذه المفاهيم قادرة اليوم على مجابهة خطابات لم تُعْنَ بالدراسة من قبل، فقد يتبين قصورها هي كذلك في زمن لاحق؛ يجعلها تحيِّن نفسها

لمواصلة التطور المعرفي، وفي هذا الإطار تتوضح بشكل كبير وظيفة المفاهيم التي تتجاوز تحقيق التواصل بين المنتمين إلى الحقل المعرفي الواحد إلى أدوات لإنتاج المعرفة البلاغية، وفي ضوء هذا التشكيل والإنتاج مع الباحثيْن، نقتنع بأن مقاربة المفاهيم والمصطلحات قد لا تحتاج إلى تأصيل لغوي يعود بها إلى جذور معجمية، بقدر ما تحتاج إلى دراستها في إطار مشاريعها المنتجة لها وفي علاقتها مع باقي المفاهيم الأخرى؛ ومن ثم، نفتح باب دراسة مفاهيم أخرى داخل هذين المشروعين في أبحاث أخرى.

وارتباطا بما سبق ذكره، فإننا نؤكد على أنه بالرغم من تلك التواشجات بين البلاغتين فإن تفاعل المستمَع وجعله محط عناية دراسة خاصة به اختصت به بلاغة الجمهور دون البلاغة العامة، أما البعد البيداغوجي الذي تسعى إليه بلاغة الجمهور ففي تحليلات العمري للخطاب مادة غنية لذلك يمكن الاستفادة منها على أوسع نطاق.

كما توقفنا مع المشروعين بوصفهما مقاربتين لتحليل الخطابات ونقدها، فتوضحت مساحة الجانب التداولي الحجاجي وأهميتها في العملية التحليلية؛ لذلك حاولنا رصدها في المشروعين، ثم انتقلنا إلى طرح إشكال السؤال المنهجي الذي يحتاج إلى عمل خاص للحديث عنه بشكل مفصل، ولكن ذلك لم يمنعنا من الاقتراب ما أمكن من الجوانب المنهاجية للمقاربتين معا، ورصد بعض الأدوات المتبعة في التحليل، لنخلص إلى إمكان دمج بلاغة الجمهور في البلاغة العامة، فنكون بذلك، أمام مقاربة تكاملية نسبيا مستعيدين البلاغة بوصفها علما للخطاب الاحتمالي المؤثر تخييلا أو تداولا أو هما معا.

خاتمة البحث

من أهم الخلاصات التي استنتجناها باعتماد التحليل الإبستمولوجي هي أن الأزمة التي وصفت بها البلاغة ليست أزمة البلاغة في ذاتها، وإنما تتمثل في اعتماد البلاغيين تصورا يتسم بمفاهيم ثابتة لدراسة معرفة متحولة عبر الزمن، فالبلاغة خاضعة لقانون التحول والتطور، ولا يمكن تبعا لذلك الإبقاء على مفاهيم ثابتة دون تغييرها أو -على الأقل- محاورتها وبحثها في أفق مجابهتها للخطابات المتجددة وفي إطار تحول الفكر عموما وليس ثباته، وقد أسهمت مقولة الإبدال المعرفي في رصد تطور أفكار تاريخ علم البلاغة؛ فالبلاغة واحدة والنظرة إليها مختلفة بحسب إبدال كل باحث، ومن ثم على كل باحث مُنظِّر البحث عن تعريف جديد لها كلما تغير الإبدال المعرفي السائد. ولتحقيق نتائج مرضية يتطلب ذلك محاورة المشاريع العربية وتحاورها كلها داخل تطور الفكر في الثقافة بشكل عام.

ليست هناك قطيعة جذرية بين الإبدالات سواء على مستوى التصور أو على مستوى بناء المفاهيم، فعادة ما هنالك اتصال قد يصل إلى حد الخفاء، وهذا التحول يمثل محاولات البلاغيين تجاوز الإبدال القائم، وعادة ما لا يسجل التاريخ تلك المحاولات أو تهمش في إطار تحول الفكر الكوني، خاصة مع العلوم الإنسانية ومنها البلاغة العربية.

تنحو البلاغة العامة نحو الكلي باستنباط القوانين الكلية للبلاغات

الخاصة، فالبحث عن العنصر المنسق للبلاغات الخاصة كلها هي مهمة فلسفية إبستمولوجية تروم القبض على القوانين الكلية للبلاغة، فيما تعترف بلاغة الجمهور بمنطقتها الجزئية، ومن ثم يتضح إمكان ضم البلاغتين (العامة والجمهور) في إطار مقاربة تكاملية، ولا سيما أن بلاغة الجمهور فتحت آفاقا رحبة في مجال البحث البلاغي لم تكن معروفة من قبل، خاصة في نوع المادة المشتغلة عليها؛ فبلاغة الجمهور أعادت البحث البلاغي ليساير واقع الحياة اليومي، وليجيب عن أسئلته، كما تبنّت بعدا أخلاقيا لرسم منطقة بحثها في دراستها استجابات الجماهير.

لقد أسفر البحث كذلك عن حاجة البلاغة العربية إلى دراسات مفهومية للمصطلحات من زاوية إبستمولوجية تتجاوز البعد اللغوي والاشتقاقي، وتتجاوز البحث في المشروع الواحد إلى مشاريع الثقافة العربية والغربية كذلك، من مختلف الحقول المعرفية على أن تحرص على النهج النسقي في بناء تلك المشاريع.

المراجع

باللسان العربي

1. أبو الحسن حسن (بهاء الدين): "بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [310 - 327]
2. أبو الليل (خالد): "السيرة الهلالية والتلقي الشعبي دراسة في أشكال الاستجابة الجماهيرية"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [367 - 415]
3. أرسطوطاليس: الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت، 1989.
4. أفلاطون:
   - o أفلاطون، محاورة فايدروس، ترجمة وتقديم أميرة حلمي مطر، دار غريب- القاهرة، 2000.
   - o محاورة جورجياس، ترجمة حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة، 1970.
5. البازعي (سعد) والرويلي (ميجان): دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002.
6. البعزاتي (بناصر):
   - o البناء والاستدلال، بحث في خصائص العقلية العلمية، دار الأمان -الرباط والمركز الثقافي العربي، ط1، 1999.

o خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دراسات إبستمولجية، دار الأمان- الرباط، ط1، مارس 2007.

7. بكار (سعيد): "في مفهوم بلاغة الجمهور"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [69 - 96]

8. بنوهاشم (الحسين): نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد، ط1، 2014.

9. تقبايت (حامدة): "بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني -خطاب الفتوى أنموذجا-"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [177 - 204]

10. الجابري (محمد عابد):

o إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط2، 1990.

o "حفريات في المصطلح التراثي مقاربات أولية"، مجلة المناظرة، ع6، السنة الرابعة، دجنبر 1993. [9 - 23]

11. جبري (إدريس): "في علاقة البلاغة العامة بالبلاغة الخاصة: بلاغة الجمهور عند عماد عبد اللطيف نموذجا"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [45 - 68]

12. الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمد شاكر (محمود)، مكتبة الخانجي القاهرة. د ط.

13. جعنيد (عبد الرزاق): المصطلح البلاغي، نحو منهج للتحقيب والتأريخ "من أجل بناء معجم تاريخي لمصطلحات البلاغة العربية"، ضمن كتاب: البلاغة العامة حوار المركز والمحيط دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري، تأليف جماعة من الباحثين، ط1، 2017، عالم الكتب الحديث-الأردن. [129 - 142]

14. حاوي (صلاح الدين): "بلاغة الجمهور ونظريات التواصل "نظرية التلقي أنموذج التلاقي والاختلاف""، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [97 - 117]

15. صديقي (عبد الوهاب):

- "بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [118 - 135]
- "بلاغة الجمهور والخطاب السياسي المغربي المعاصر في الفضاء الرقمي دراسة في أنماط الاستجابات وبنيتها الحجاجية: قانون مالية 2016 نموذجا". ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [328 - 364]
- بلاغة جمهور الخطاب السياسي قضايا ونماذج، دار أمجد، ط1، 2018.

16. طريف الخولي (يمنى): "نحو توطين المنهجية العلمية في العالم الإسلامي.. رؤية فلسفية"، عالم الفكر، ج 43، أكتوبر- ديسمبر 2014، ع2. [119 - 178]

17. عبد الحميد عمر (أحمد): "يسقط يسقط ! بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية الهجمات الشخصية ضد مبارك نموذجا"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [255 - 271]

18. عبد العزيز (بسمة): "بلاغة المقاومة، الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية البليغة لخطاب مؤسسة الحكم"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [272 - 309]

19. عبد اللطيف (عماد):

- "أزمة المصطلح البلاغي العربي: مظاهر وأسباب ومقترحات"، مجلة البلاغة

وتحليل الخطاب، (المغرب - بني ملال) ع 9. 2016. [117 - 129]

- "أفلاطون في البلاغة العربية من التهميش إلى الاستعادة"، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، جامعة مستغانم الجزائر، ع ربيع وصيف 2015. [64 - 74]

- "بلاغة الجمهور وتحليل الخطاب السياسي، بحث في البلاغة المهمشة"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، بني ملال المغرب، ع 7و8. [193 - 206]

- "بلاغة الجمهور ودراسة الخطاب السياسي ملاحظات منهجية"، ضمن كتاب: البلاغة الثائرة خطاب الربيع العربي.. عناصر التشكل ووسائل التأثير، إعداد وتقديم د. سعيد عوادي، دار شهريار- العراق، ط1، 2017. [9 - 20]

- بلاغة الحرية، معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، دار التنوير، ط1، سنة 2013م.

- "بلاغة المخاطب البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، ضمن (Power and the role of the Iintellectual) ع 9، س 2005. [7 - 36]

- تحليل الخطاب البلاغي.. دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، كنوز المعرفة، ط1، 2014.

- "تحليل الخطاب السياسي في العالم العربي التاريخ: والمناهج والآفاق"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب ع 6. [111 - 130]

- "تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ع 84/ 83 خريف/ شتاء -2012 2013. [509 - 528]

- لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن، دار العين - القاهرة، ط1، 2009م.

- "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ الإسهام، الهوية المعرفية، النقد"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح

الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [17 - 42]

- "من الوعي إلى الفعل مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي"، ضمن أعمال ندوة علاقات الخطاب بالسلطة" قسم اللغة الفرنسية، جامعة القاهرة، أكتوبر 2006. [567 - 585]
- "مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر مقاربة نقدية"، كتاب المؤتمر، الندوة الدولية، 1، 2015. [241 - 254]
- "منهجيات دراسة الجمهور..دراسة مقارنة"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [136 - 171]
- "موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي "جورجياس و"فيدروس""، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ج5، ع2، أكتوبر 2008م. [227 - 244]

20. عبد الوهاب يحيى (لطفي): اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، 1991.

21. عبيد (حاتم): "الباتوس: من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف"، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مجموعة مؤلفين، تحرير وإشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم ودار الروافد الثقافية (بيروت)، ط1، 2013م. ج2. [747 - 800]

22. عزام (محمد): المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت لبنان، د ط.

23. العمري (محمد):

- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة.. دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، 2013.

- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، ط2، 2012.
- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، ط2، 2010.
- تحليل الخطاب الأصولي عوائق الحوار..قراءة حجاجية في خطاب الأصوليين المغاربة..مساهمة في تحليق الخطاب السياسي، فالية، ط1، 2015.
- دائرة الحوار ومزالق العنف كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تحليق الخطاب، أفريقيا الشرق 2002.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق، 2002، ط2.
- المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، ط1، 2017.
- "مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي"، مجلة فكر ونقد، السنة الثانية ع 20 يونيو 1999. [87 - 100]
- "المقام الأدبي"، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد العمري (محمد)، أفريقيا الشرق، ط2، 2004. [117 - 140]
- "من النقد الأدبي إلى البلاغة العامة، من النص إلى الخطاب"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع11، خريف 2017. [15 - 32]
- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، 2001.

24. الغرافي (مصطفى): "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" (مشروع قراءة)"، عالم الفكر، العدد1 المجلد 40 يوليو- سبتمبر 2011. [249 - 300]

25. فراج النابي (ممدوح): "السلطة الخادعة... والوعي الزائف، جمهور الرواية... رواية الجمهور"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [416 - 452]

26. كون (توماس س): بنية الثورات العلمية، ترجمة: حاج اسماعيل (حيدر)، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2007.

27. كينغ (أندريو أ.) A. King Andrew: "البلاغة والسلطة Rhetoric and power"، ترجمة عماد عبد اللطيف، مراجعة مصطفى لبيب، ضمن موسوعة البلاغة، تحرير توماس أ. سلوان، ترجمة نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف. ج3. [320 - 327]

28. محمد (ضياء الدين): "بلاغة جمهور الخطاب الديني في الفضاء الافتراضي دراسة في خصائص الاستجابة وآلياتها"، ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم: حاوي (صلاح الدين) وصديقي (عبد الوهاب)، شهريار- العراق، ط1، 2017. [205 - 251]

29. مطلوب (أحمد): بحوث مصطلحية، منشورات مطبعة المجمع العلمي - بغداد، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (234) سنة 2006م.

30. مغراوي (الحبيب): "تعقيب على ورقة "اشتغال المصطلح في نسق المشروع البلاغي عند القاهر الجرجاني" لعبد الرحيم وهابي وعبد القادر بقشى"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، بني ملال، عدد 9 سنة 2016، عدد خاص (أعمال الندوة العلمية الدولية في موضوع: سؤال المصطلح البلاغي). [285 - 288]

31. مفتاح (محمد):

- "ما المفهوم؟"، ضمن كتاب: المفاهيم تكونها وسيرورتها، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء.[11 - 19]
- المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط2، 2010.

32. المودن (حسن): "دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي"، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مجموعة مؤلفين، تحرير وإشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم ودار الروافد الثقافية(بيروت)، ط1، 2013، ج1.[425 - 455]

33. هاني (إدريس): ما وراء المفاهيم.. من شواغل الفكر العربي المعاصر، مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، 2009.

34. وعزيز (الطاهر): "المفاهيم طبيعتها ووظائفها"، مجلة المناظرة، ع1، يونيو 1989. [11 - 23]

35. وقيدي (محمد): ما هي الإبستمولوجيا؟، مكتبة المعارف- الرباط، ط2، 1987.

36. الولي (محمد): "الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب (بني ملال-المغرب)، ع10، 2017. [37 - 55]

37. وهابي (عبد الرحيم): "القراءة التداولية في البلاغة العربية، قراءة في المنجز البلاغي لمحمد العمري"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب(بني ملال- المغرب)، ع5، 2014. [75 - 83]

38. يحياوي (رشيد): التبالغ والتبالغية، نحو نظرية تواصلية في التراث، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1، 2014.

مرجع الكتروني:

39. علي سلامة (حيدر): "نقد أيديولوجيا المنهج والنظرية بحث في لغة اللغة لبلاغة الجمهور"، مجلة الكلمة (إلكترونية)، ع126/ أكتوبر - تشرين 2017، على الرابط: [http://www.alkalimah.net/Articles/Read/192712018].

باللسان غير العربي:

1. Bouchard, G.: Le recours à l'auditoire universel implique-t-il une pétition de principe?. Philosophiques.

   contrario 2011/2 (n° 16). Sur le lien: https://www.erudit.org/en/journals/philoso/1980-v7-n2-philoso1307/203137ar [2018]

2. Danblon (Emmanuelle): "La rhétorique: à la recherche d'un paradigme perdu", A. Sur le lien: https://www.cairn.info/revue-a-contrario-2011-2-page-26.htm [2018]

٧ Perelman (Chaïm) et olbrechts-tyteca (lucie): Traité de l'argumentation, La nouvelle rhétorique, Editions de l'université de Bruxelles, 5eme édition, Belgique, 1988.

٨ Perelman (Chaïm): L'empire Rhétorique, rhétorique et argumentation, Librairie Philosophique j. VRIN, France, 1977.

٩ Willett (Gilles): "Paradigme, théorie, modèle, schéma: qu'est-ce donc?", *Communication et organization. Sur le lien*: https://journals.openedition.org/communicationorganisation/1873 [2018]



البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا

يسعى هذا البحث إلى تتبع أفكار الدعوى التي يقترحها الأستاذ العمري لمشروعه "البلاغة العامة"، القائلة بأن البلاغاتِ كلَّها تشترك في عنصرين ينسقانها، يمثلهما الاحتمال والتأثير انطلاقا من التعريف الكلي الذي يطبع مفهوم البلاغة عنده، وهو أن البلاغة علمُ دراسة الخطاب الاحتمالي المؤثر تخييلا أو تداولا أو هما معا، ومن ثم تزعم البلاغة العامة أنها إمبراطورية مترامية الأطراف تضم البلاغات الخاصة على تنوعها، ومن تلك البلاغات اخترنا مشروع "بلاغة الجمهور" للأستاذ عماد عبد اللطيف نموذجا لتعميق البحث في هذه الدعوى. وقد ساعدنا التحليل الإبستمولوجي في إطار مقاربة بلاغية في تأطير تصوريْ المشروعين والوقوف عند مفاهيم مصطلحاتهما لنختم بدراسة الوشائج بينهما بناء على منطلقات دعوى الأستاذ محمد العمري.

الكلمات المفاتيح: البلاغة العامة - بلاغة الجمهور - التصور الإبستمولوجي - الإبدال المعرفي - المفهوم - المصطلح.







